ضياء
t.me/twinkling4

فوضى العودة

أثير عبدالله النشمي

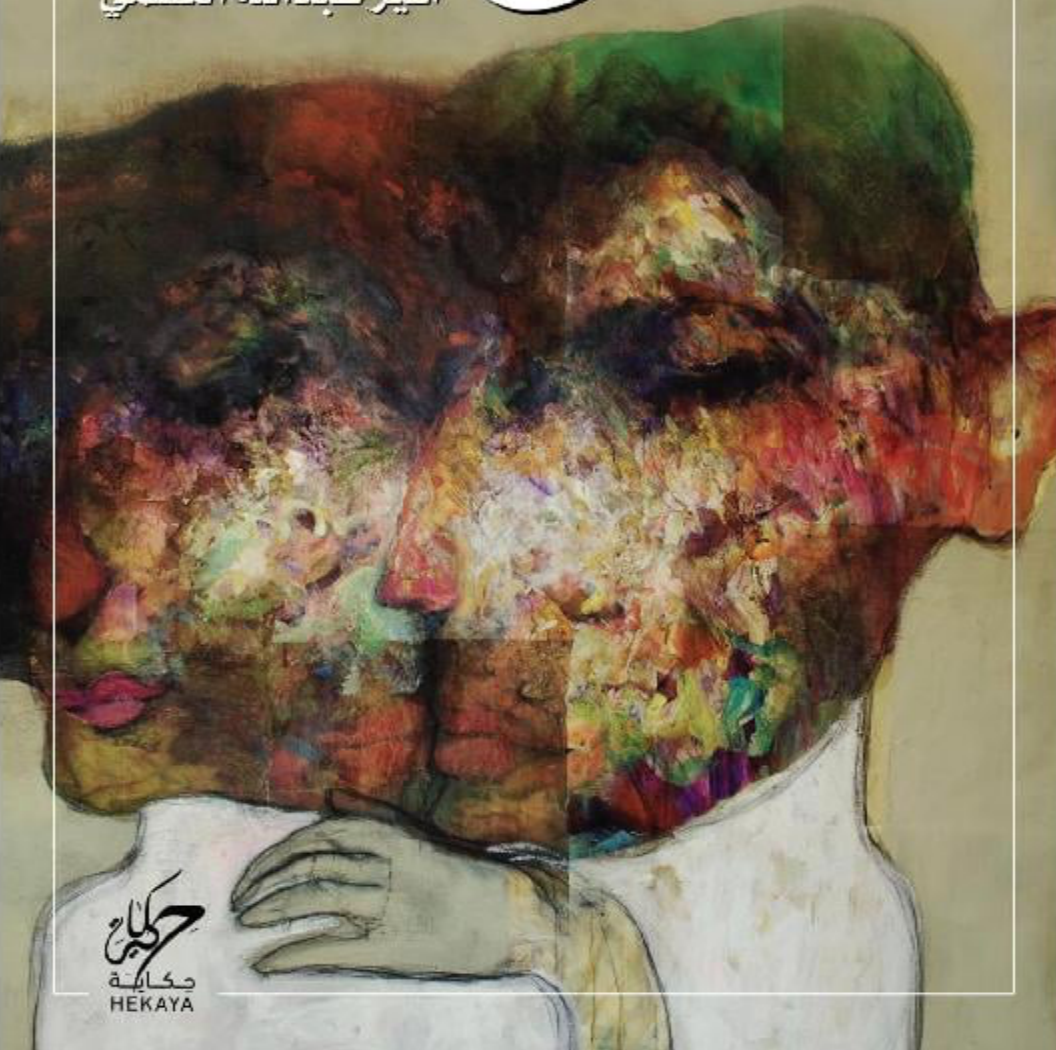

حكاية
HEKAYA

فوضى العودة

فوضى العودة

أثير عبدالله النشمي

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد،
الإلكترونية. ©

t.me/twinkling4

الكتاب	**فوضى العودة**
تأليف	**أثير عبد الله النشمي**
الترقيم الدولي ISSBN	978-9921-755-10-7
التدقيق اللغوي والمراجعة	**حسن أبو طالب**
لوحة الغلاف الأمامي للفنان	**وضاح مهدي**
للتواصل مع المؤلف	**atheer.alnashmi**

الطبعة الثانية:2021

جميع حقوق الطبع محفوظة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو اية وسيلة نشر أُخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

تم عمل هذه النسخة بواسطة: أشرف غالب.

twinkling_7

حكاية
HEKAYA

@DarHekaya | DarHekaya@gmail.com | www.DarHekaya.com

الإهداء:

إلى كُل الملازمين بيوتهم في الحجر المنزلي..

إلى كُل من مروا بالتجربة ونجوا منها، ولكل من فقدوا بها أحداً..

إلى كُل الذين ينتظرون دورهم فيها..

إلى كُل المحبطين والخائفين، المتفائلين والمتأملين..

كونوا بخير وانجوا..

أثير..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ها هي رياضك إذا!

لا أصدق بأن هذه الرياض!

أجوب شوارعها بدهشة تُشبه دهشة الأطفال. كيف أصبحت تلك الرياض هذه الرياض؟!

كيف انتقلت من «تلك» لهذه؟! وكيف أن أشياء كثيرة كانت لتحدث لو أنني صبرت قليلًا.. قليلاً عليها!

وأخيراً! رياضُ مُختلفة. رياضُ مُرنة.. رياضُ لا تُشبه الذاكرة..

من كان ليصدق بأنها ذات المدينة التي هربتُ منها والتي آمنتِ أنتِ بها ولم تجرئي على أن تفرطي فيها!

من الغريب ألا تذكّرني الرياض إلا بكِ! أن تكوني أنتِ علامتها الفارقة، وجهها الحنون، هويتها الدافئة، معلمها الأهم. أن يقترن اسمها باسمكِ أنتِ..

كيف لا أذكر في الرياض غيركِ؟! وكيف لا أشتاق فيها إلى سواكِ؟!

الرياض يا جُمانة، أجدها اليوم مثلما تخيلتها يوماً، ومثلما حلمت بها وأردتِ لها، قوية، عادلة، مُستقلة، حية، ها هي طموحة وحُرة..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

رياضُ لا تُشبهني! .. رياضُ تُشبهك. رياض الرؤية!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

رأيتُكِ على الشاشة لأول مرة ومن بعد عشر سنوات من انشطار علاقتنا. كُنت أراقبكِ طوال تلك السنوات الماضية على وسائل التواصل الاجتماعي. أحتفظ بصورتكِ الشخصية على تويتر كخلفية لشاشةِ هاتفي. أراقب حساباتكِ على الإنستغرام وعلى تويتر بصمت، وبمعرّفات وهمية كيلا تصدّيني عنها وعنكِ، لكنها المرة الأولى التي أراكِ فيها تتحدثين بصورة حية ومنذ عشر سنوات كاملة!

تغيرتِ! تغيرتِ ولم تتغيري! كبرتِ ولم تكبري! لم تتغيري كثيراً ولم تكبري كثيراً! شيء فيكِ قد تغير ولا قدرة لي على تمييزه حتى الآن!

حينما رأيتكِ اتسع قلبي! اتسع قلبي كثيراً! اتسع واتسع.. ابتسمتُ بلهفة وبحنين. ها أنتِ امرأتي! حُب عُمري.. ها أنتِ جمان التي أحببتها وعرفتها وانتظرتها..

كُنت أعرف من خلال متابعتي لكِ طوال السنوات الماضية بأنكِ قد حصلت على درجة الدكتوراة قبل ثلاثةِ أعوام، وبأنكِ ترأسين إحدى الجمعيات التطوعية في البلاد. أعرف بأنكِ متزوجة وأم لطفلين، وبطبيعة الحال توصلت لمن يكون زوجكِ.

أُتابع زوجكِ كذلك. يُشبهكِ كثيراً ولا يشبهني أبداً. لكا الذوق نفسه. تكتبان بالطريقة عينها. لديكما الميول والاهتمامات ذاتها. تتشابهان بقدرِ ما نختلف أنا وأنتِ، وبقدرِ ما أختلف أنا عنكِما أنتما الاثنين!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أستطيع أن أُحدد مشاعري تجاهه. أتأمل دوماً صورته الرسمية على تويتر. بغترة بيضاء وابتسامة واسعة، مُتفائلة، مشعة لا تشوبها السجائر.

يضع في تعريفه على تويتر بأنه تخرج من نفس الجامعة الأمريكية التي حصلتِ منها على درجة الدكتوراة.

نمطية أنتِ وحذرة! تعيشين حياتك بتكرار الحكايات مع تُجيدين بعض التغييرات. تعارفتما في الجامعة كما هو واضح.

دائماً استغلال غربتك! قادرة على أن تجذبي مواطنيكِ، أن تسلبيهم وتوقيعهم بكِ حتى آخرهم، إلى حد لا يتوقعونه ودرجة لا يتخيلونها!

من الطبيعي أن يُحبكِ هناك، فلطالما كُنت الوجه الدافئ للوطن! لا شك عندي في أنه أُحبكِ كثيراً. لن أُفكر في إن كُنت قد أحببتهِ بدورك، لا لأني لا أعتقد بأنكِ فعلتِ، بل لأني لا أريد التفكير مُجرد التفكير بإمكانيةِ ذلك!

يضع في صفحته بأنه متزوج بك ويُشير إلى معرّفكِ بثقة وفخر مثلما تفعلين..

لا أعرف حقيقة لماذا فكرت بكل هذه الأمور وكل تلك التفاصيل التي قد تبدو تافهة؟! لا أعرف لماذا قادني عقلي أو ربما قلبي لتحليل كُل

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

هذا؟! لما فعل ولما فعلتِ! بماذا شعر وبماذا شعرتِ؟! ماذا قصد وماذا قصدتِ؟!

لا أعرف فعلاً لمَ أمزق نفسي بالبحث عنكِ؟! لَم أُفكر بكِ إلى هذا الحد ولَم أُتابع كُل من تتابعين؟! لَمَ تقودني أفكاري لتفسير كُل ما تكتبين وما تُعجبين به وما تعيدين تغريده؟!

يعييني ويُخيفني هذا التعلق المُنهك المريض! يُفزعني ويؤلمني هذا الخيط الرقيق الذي لم أجرؤ على قطعه ولم يهترئ من نفسه لعشر سنوات كاملة!

أنا لا أعرف إن كُنت ما أزال أُحبكِ حتى الآن! كُل ما أعرفه بأن أول ما أفعله حالما أستيقظ هو أن أفتح صفحاتكِ على وسائل التواصل الاجتماعي لأبحث لي عن أي صباح منكِ، وبأن آخر ما أفعله قبل أن أنام هو البحث عنكِ كذلك! أبتسم لصباح خيرك، وأستكين على تصبحون على خير!

أنام بعد البحث عنكِ وأستيقظ لأبحث عنكِ، وأتخبط في معمعة البحث هذه مثلما تخبطت فيها طوال العشر سنوات المنهكة الماضية!

لم أجرؤ يوماً على أن أرسل لكِ، لا لأني خشيت فقط أن تُغلقي في وجهي كُل الأبواب فأفقد القدرة على أن أعيشكِ وأرقبكِ، بل لأني

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

خشيت أن أُدنس استقراركِ بذكراي، بذكرى قديمة لا شك عندي من أنها لم تعُد تُسعدكِ ولا حتى تهمك!

أرقبكِ على الشاشة. أضغط على الزر الأحمر في جهاز التحكم لأُسجل اللقاء. هذا هو ظهوركِ الأول على التلفاز! اللحظة التي لطالما تمنيتها ولطالما خشيت منها! شعرتُ بيد باردة تعتصر معدتي، وبدبابيس صغيرة حادة ومُدببة تخترق قلبي. كم من رجُل غيري سبق وأن أُحبكِ يراك الآن؟! يُقبّل عينيك بعينيه ويحتضن جسدك بقلبه؟! .. تدّعين بأنه لم يُحبكِ أحدٌ قبلي، لكنكِ لن تقدري على أن تقنعني بأن أحداً لم يحبكِ بعدي!

أرقبك وأنتِ تتحدثين بهدوءٍ كعادتك. أرفع صوت التلفاز إلى أعلى درجة مُمكنة. أحبس صوتك باهتزازاته وترددات وتموجاته بداخل رأسي. أرقب يديكِ وأنتِ تحركيها بانفعال لا أجهله ولا أتيه عمّا خلفه!

لم تتغيري كثيراً. تبتسمين بالتحفظ والخجل ذاته. تلمع عيناكِ كنجمتين مُضيئتين مثلما كانتا. أصبحتِ أكثر ثقة مما كُنت عليه. أكثر قوة وأكثر حدة، لكنكِ ما زالت جمانة الرقيقة التي أعرف!

أعدتُ تشغيل اللقاء مرة أُخرى. خفضت من حدة الصوت قليلاً. احتضنت وسادتي بقوة وأغمضت عيني وأنا أتخيلكِ بين يدي، تحكين

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لي قبل أن ننام دور القطاع الخاص في تفعيل عملية التطوع.

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مضت اثنتان وعشرون سنة على مغادرتي للرياض. اثنتان وعشرون سنة قضيتها مُغترباً، لا أعرف إن كان وصف الغربة دقيقاً! الحقيقة أنني لم أشعر يوماً بالغربة هُناك مثلما كُنت أشعر بها في الرياض!

كُنت أؤمن دائماً أن الرياض ليست المكان المناسب لأعيش فيه، لكنني لطالما تمنيتُ ألا أموت في سواها. لم تَكُن العودة إلى الرياض حياً من خططي أبداً. لم أخطط للعودة والعيش هنا على الإطلاق. كانت تلك الخطة مستحيلة. لم يَكُن ليكون حلاً أبداً ولا مشروعاً وارد التنفيذ. لم أكُن لأعود إلا لأموت هنا لتحتضنني حضن الوداع الأخير!

ها أنا أعود اليوم بعد اثنتين وعشرين سنة من الرحيل، وأربعة وأربعين شعرة بيضاء تملأ راسي بعدد السنين التي قضيتها في معترك الغربة ومعمعة الحياة وصراع الهوية والانتماء!

عُدت اليوم للرياض الجديدة التي لا تشبه التي غادرت. عُدت مع الطيور التي هاجرت توجساً منها وعتباً عليها.

قيل لي بأنني سأجد في الرياض الجديدة نفسي التي فقدته حينما غادرتها، لذا عُدت لأجد كُل شيء وكل أحد قد تغير عداي! وكأن الدنيا قد وقفت بي! لا أعرف ما الذي توقعته بعودتي بعد كُل هذه السنوات؟! تخيلتُ أشياء كثيرة، أشياء أُدرك في قرارة نفسي بأنها لن تقع، لكن إحساسي بإمكانية وقوعها حتى وإن كان ضئيلاً هو ما أعادني، هو ما

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

جعلني أحزم حاضري وماضيي وأسافر لمستقبل لا يربطني فيه إلا ذلك الأمل الضعيف الضئيل. عدت لأنني أملت بأن تسوقني الأقدار إليكِ. كيف ومتى ولماذا وأين؟ لا تهمني التفاصيل، المهم أن تسوقني في نهايةِ المطافِ إليكِ!

تنته علاقتنا قررت ألا أكترث بأي حياة سيزعزعها حضوري، أو أي حياة تستقر بغيابي. لا يعنيني أن أبدو أخلاقياً. لم ولا يهمني ما تتطلبه الأخلاق! عشر سنوات مضت. لم تنتهِ بنقطة نهاية. ظلت تلك الفاصلة تربط بين حياتينا، مصيرينا، قدرينا، رُغم البُعد وشبه الغياب.

جلستُ مع والدي في صباح ما بعد العودة. كُنت أتأمل تلك الخطوط التي نحتت في ملامحه الزمن والعُمر والفقد والتجارب. أبحث في تجاعيده العميقة والدقيقة عن كُل هم خططته في وجهه، عن خطوط الخيبة التي نقشتها، والشوق الذي انهار ومات من طولِ الانتظار.

لم يَعُد يخيفني أبي مثلما كان يفعل. لا أعرف لمَ تألمتُ كثيراً وفقدتُ تلك الهيبة التي تلاشت رغم أنها لطالما ضايقتني! لم يَعُد هذا الرجل الأب الذي هربت بسببه! لم يَعُد ذلك الصلب الذي كُنت أعرفه! تلاشت تلك الحدة، وخبت تلك الصرامة، وكأن الزمن قد طهره من قسوة الحياة التي فرقت ما بيننا، وكأنه عاد طفلاً بلا ترسبات ولا غضب ولا احتقان ولا تحفظات!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ذلك الشيخ الوادع الذي يربت على ركبتي بيدٍ ترتجف ليس بأبي الذي غادرته مُختنقاً بصرامته، مُحتقناً بقسوته. رجُل آخر بات قلبي يميل لطيبِ كلماته ولين معشره.

أنا أيضاً تغيرتُ كثيراً. استكان ذلك الشيطان القابع والصاخب في صدري. خف ضجيج مشاعري. لم تعد أفكاري تنطلق باندفاعية وبلا مكابح.

تغيرت! بشكل من الأشكال تغيرت! لم أسعَ لأن أتغير ولم أمنع ذلك التغيير، كُل ما في الأمر أنني وجدت نفسي قد تغيرت. ضاقت حدودي وتغيرت اتجاهاتي وضاقت خارطتي!

يقول ألبير كامو بأن «المرء يتعرف وطنه في لحظةِ ضياعه»، لذا عادت إبرة البوصلة تُشير باتجاه العائلة، الوطن، والرياض، تُشير إليكِ أنتِ!

أرقب والدي بدهشة. كيف يتحرك، كيف ينظر، كيف يضحك. يدهشني تشابهنا الذي بات جلياً بفعل الزمن! أنظر إلى نفسي في المرآة الكبيرة التي تُغطي كُل الجدار على يميني. يدهشني كيف أصبحت أشبه ذلك الشيخ حتى في تذكرت ماركيز عندما قال بأن «أول أعراض الشيخوخة هو ألفاظها بدء المرء بالتشابه مع أبيه»، ويبدو أنني بت أقرب إليها مما كُنت أعتقد!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُدرك بأن ما غيرني هو ذاته ما قد غير والدي، الزمن! الزمن الذي يُشيّد القسوة فينا هو ذات الزمن الذي يصهر القسوة بدواخلنا كلما كبرنا، وهو الزمن نفسه الذي لم يزد لين أمي إلا لينا.

أنظر إلى أمي التي كبرت جداً. أجدني بين تجاعيدها رغم غيابي لعمُر كامل. تمسح على رأسي كطفل صغير، وتنظرِ إليَّ بعينينِ أُدرك بأنها لا تريان مشيب صدغيّ!

بقدرِ ما شعرتُ بأنني مدين لوالدي بالحضور، بالقرب، بالتواجد معها حتى آخر يوم في حياتها أو حياتي -وأنا أدرك بأنها غالباً لن يعيشا بقدرِ ما غبت- إلا أنني شعرتُ بأنه من المثير للسخرية أن أعود إلى بيت والدي في منتصف أربعيناتي! أن أكبل يدي بقيود الوصاية طوعاً، وأن أعيش كنصف عبد ونصف حُر مرة أُخرى!

جئت بلا خطة. ربما هذا الجانب الذي لم يُغيره الزمن بي. المضي بلا تخطيط ولا تحديد! لم أُفكر فيها سأفعله بعد عودتي . شعرتْ بأن التفكير فيها قد تحمله العودة سيُعيدني إلى مركز الخوف، وبأن الذعر سيُبعدني من جديد.

قررتُ العودة ما أن شعرتُ بأن جائحة كورونا بدأت تنتشر، وبأن رقعة المرض بدأت تتسع، وبعدما وجدت الدولة تسعى وبشكل جاد لإجلاء مواطنيها ورعاياها. كُنت أعرف بأنها رحلة ذهاب يُجهل فيها موعد

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الإياب أو حتى التكهن به، لكنني لم أقدر على أن أتجاهل صوت والدي هذه المرة! لم أقدر على أن أتجاوز توسلاته لي بالعودة. كُنت أشعر بأن صوته هو صوت الوطن، وبأن صوت الوطن هو صوته، هما اللذان لم يطلبا مني شيئاً طوال حياتي فكيف بها يسألاني الرجوع!

كل ما أردته بالعودة هو أن أطبطب على والديّ، أو أن تطبطب عليَّ عودتي إليها. لا أعرف بمن فكرت أولاً؟ بي أم بها؟! المهم أنني عِدت بلا خطط وبحُلمٍ ساذجٍ في أن أُكمل البداية. تلك البداية البعيدة التي بدأناها معاً، وتوقفتِ أنتِ في منتصف دربها بدونِ أن تودعيني أو أن تصلي معي إلى نهاية!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

قررت أن أبعثر الأمور حالما وصلت. ربما هي عادتي التي لم تتغير!

فكرتُ في أن أكشف كُل أوراقي وأجازف. رجُل مثلي لا يُجيد الانتظار ولا قدرة له على انتظار مجهول قد لا يأتي أبداً، خاصة تحت هذه الظروف غير المسبوقة، والتي لا نعرف؟! ماذا ستكفلنا وماذا ستأخذ منا؟ وما كيف ومتى ستنتهي الذي ستُخلفه فينا؟

قررت أن أُمارس خطيئة اللا تخطيط أيضاً هذه المرة. الخطيئة التي لطالما ارتكبتها والتي لطالما دفعتُ ثمن ارتكابها!

حملت أوراق طبعتُ عليها سيرتي الذاتية. فتحت «خرائط جوجل» وتوجهت إلى الجمعية التي تعملين بها. لا أعرف ما الذي كُنت أُفكر به طوال الطريق؟! لم تَكُن لدي أية خطة! لا خطط ولا أفكار ولا توقعات! رجُل أربعيني يتأبط «لا شيء» بخطى مُغامرة! أدرت عبد المجيد عبد الله طوال الطريق. كُنت أحتاج لأن يطمئنني، أن يربت على قلبي ولأن يخبرني بأن السنوات لم تغير شيئاً، ولن تقدر على تغيير شيء. أن كُل شيء سيظل كما كان، وأن الزمن الذي غيرني لم ولن يقدر على أن يُغيركِ، أنتِ الوحيدة التي تمنيتُ ألا تمسها يد الزمن! ألا يتمكن من العبث بكِ، أن يتركك كما أنتِ حتى وإن تزوجتِ وأنجبتِ وسلكتِ درباً جديداً بعيداً عني. الدرب الذي أشعر وأؤمن بأنه في نهاية المطاف سيُفضي إليَّ لا محالة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتدرين؟!

أن لطالما آمنتُ بأن كُل دروبكِ مهما بعدت ومهما امتدت ومهما تشعبت ستُفضي إليَّ، هذا هو قدرنا! أن نتباعد لنلتقي، نلتقي ونتباعد، تتقارب مسافاتنا بقدرِ ما تتسع، وتتسع بقدرِ ما تتقارب، لكننا في نهاية الأمر نلتقي.

دلفت إلى الجمعية بخطوات حازمة. لم أكُن لأتراجع. ليس بعد هذا الغياب، وليس بعد هذه العودة!

أنا لم أعُد لأبقى قصياً ولم أغب لأظل غائباً. غبت لأعود وعُدت لأبقى، ولم أعد ولن أبقى إلا لأجلكِ أنتِ.

دلفت إلى قسم التوظيف في إدارة الموارد البشرية. قلتُ للموظف الجالس بملل بأنني أرغب بالتقدم على وظيفة في مجال التنمية المستدامة. أجابني بدونِ اكتراث بأن التقديم على الوظائف يتم بشكل إلكتروني، وبأنه لا تتوفر أية وظائف شاغرة حالياً في الجمعية لظروف الجائحة. أخبرته بأنني قد قُمت بالتقديم الإلكتروني وبرغبتي حالياً بالتطوع. مد يده وأخذ الأوراق منى مُجاملاً. عقد حاجبيه بدهشة حينما اطلع على الصفحة الأولى من سيرتي. رفع رأسه ونظر إليَّ باستغراب وقال: أنت دكتور! تحمل شهادة في الدكتوراة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- صحيح.

- كُنت مُبتعثاً؟!

- نعم

- ولماذا تتطوع؟! من غير المعقول إنكِ لم تجد وظيفة حتى الآن!

- لم أعادل شهادتي بعد. سيستغرق الأمر بعض الوقت. سأتطوع حتى تُعادل شهادتي وأجد وظيفة مناسبة. من يدري؟ قد أجدها لديكم لاحقاً!

- مؤهلاتك أكبر من أي وظيفة قد تطرح قريباً!

- لا بأس. سأقبل بأي وظيفة!

نظر إلى باستغراب أو ربما بشيءٍ من الريبة! قال ببرود: انتظر اتصالنا خلال هذا الأسبوع يا دكتور!

صافحته ببرود مماثل وشكرته.

تجولت في أروقة وممرات الجمعية كمتلصص. كان قلبي يخفق وعيني تجول بين لوح أسماء الإدارات على أبواب المكاتب. وقعت عيني على مكتبكِ. شعرتُ بأنفاسي تضيق وتتسارع. لم تَكُن مباغتتك من خططي،

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ولم يَكُن التمهيد لكِ من خططي أيضاً! الحقيقة أنني لم أخطط لشيء ولا على شيء!

كُنت متردداً في ارتجال الظهور مثلها كُنت متردداً في تخطيط الغياب. فكرتُ أن أطلب مقابلتك، لكنني خشيت أن ترفضي فتقطعي عليَّ خيوط الحضور، وخشيت أن تقبلي فأباغتكِ وليس في جعبتي ما قد يُقال! قاومت مشاعري اللحوحة وخرجتُ بخطى متسارعة تسابق أنفاسي.

عشر سنواتٍ مرت. بسرعة أحياناً وببطء أحيانٍ أُخرى. لم تقتلني عشر سنوات كاملة ولن يقتلني شيء من الانتظار..

* * *

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان من الصعب عليَّ أن أعود لأقيم علاقة جديدة مع الصعب حقاً أن أتجاوز الطلاق السابق الذي وقع بيننا والذي لطالما شعرتُ بأنه بائناً بلا مراجعة ولا عودة!

الرياض. كان من من الصعب أن تبتسمَ للمدينةِ التي أدارت ظهرها في وجهك. المدينة التي رفضت وجودك فيها، والتي تخطتك منذ عقود وتجاوزتك وكأنك لم تَكُن يوماً جزءا منها، وكأنك لم تَكُن منها وفيها!

لا أعرف لم أشعر بكل هذا العتب تجاهها؟! لطالما كان من الصعب عليَّ أن أمد يدي لها من جديد مهما شعرتُ بالرغبة في احتضانها، لكنها لا تشبه المدينة التي عرفت وهجرت! تغيرت مثلما تغير والدي، وهذا ما دفعني للمحاولة واستغلال هذه الفرصة التي وهبت إياها ولم أسعَ لها!

لم تَكُن العودة سهلة. لا لعلاقتي المضطربة بالرياض فحسب، بل لأنني لم أعد أنتمي لأحدٍ فيها. لا أصدقاء ولا زملاء، ولا عمل ولا حتى عائلة! العائلة التي تتعرف عليَّ من جديد وأحاول أنا أن أعرفها بنسختها الجديدة التي لم أعهدها ولم أعرفها قبلاً!

تأخرت! تأخرتُ كثيراً .. لم يَكُن من المفترض أن أقضي كُل هذا العُمر بعيداً! تأخرت حتى تغير كُل شيء وكل أحد عليَّ فيها!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

حينما تبدأ القطيعة في العلاقات، يزداد البرود وتزداد الفجوة كلما طالت القطيعة. تتوسع المسافات ويكبر الجفاء فيصعب علينا التراجع والعودة.

لم أسوّف في حياتي شيئاً بقدرِ ما سوّفت عودتي إلى الرياض! في كُل مرة أقرر فيها العودة لها تصدني سنوات الغياب الطويلة فأشعر بغربتي وبغرابتي فيها، فأعود أدراجي إلى حيثُ أعرف.

لم يمضِ الكثير على عودتي، وها أنا ذا أشعر بالضعف حيال التغيير، بالضآلة أمام أولئك الذين ينتمون إلى هذه الأرض التي تبادلهم الانتماء.

من الصعب أن تُقدم على بدايةٍ جديدة! من الأصعب أن تبدأ من حيث لا أحد ولا شيء! والأشد صعوبة من كُل هذا أن تبدأ هذه الرحلة في منتصف العُمر خالِ الوفاض!

كُنت أعرف أنني سأندم في هذا العُمر وعند هذه اللحظة، لكن ذلك العُمر كان بعيداً وتلك اللحظة لم تَكُن قريبة بها يكفي لأن أشغل بالي بها ولأن أُفكر فيها أو أخشاها!

كُنت أتكئ على المتع الآنية، على الحاضر بها فيه من حُرية وخيارات. لم أكن لأفسد شبابي ولا حُريتي بالتفكيرِ بها يخبئه المجهول والأيام، والأقدار التي لا يعرفها ولا يتوقعها أحد!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

استمتعتُ بنصف عُمري. حوالي ربع قرن من الزمن، بدونِ أن يُلزمني شيء أو أن يكبلني شيء. انتهت تلك الأوقات، وانقضى نصف العُمر، وحانت لحظة مواجهة الحقيقة والبدء من جديد حيث الصفر فعلا وتماماً!

احتجتَ للكثير من الوقت لأربط جأشي، لأحزم ترددي وأعود. كُنت أعرف أنني سأبدأ من حيث انتهى الآخرون، بأنني سأكون في نهاية طابور الحياة، الشخص الأخير الذي فاتته كُل القطارات، العالق في محطة الزمن الضائع، والعُمر المهدور بحثاً عن رحلة!

لم أعد لأنني شجاع ولا لثقتي بقدرتي على تجاوز تأخري عن الركب، بل لأنني أدركت أنني سأخسر ما تبقى لي من عُمر وإمكانيات ومعظم الفرص إن لم أعد الآن. إما أن أرجع الآن أو ألا أرجع أبداً!

عادة ما يفكر رجُل مثلي بالحياة. التفكير بالموت مُستبعد دائماً. لم يَكُن الموت من خياراتي، لكن الوباء الذي اجتاح الأصحاء أن بدونِ العالم فجأة وفتك بالكثيرِ من منهم العُمر يستطيع أحد أن يوقفه، بالإضافةِ إلى الخمسينات من التي تقترب إليَّ بلهفة شامتة، كلها غيرت حساباتي من دونِ أن أكون مُستعداً لمحاولةِ إعادتها..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم تَكُن أمامي الكثير من الخيارات. كُنت أمام خيارين، إما أن أعيش سعيداً وأموت وحيداً بين من كانوا يعتنون بي أثناء الحياة، وإما أن أعيش وحيداً وأموت مُحاطاً بمن سيعتنون بي بعد الموت!

وها أنا ذا، أعود كطير شريد يعرف لم رحل ولا يفهم كيف عاد!

يتمسك بحكاية قديمة علُقت قبل عشر سنوات، أعقبتها حكايات وتخللتها الكثير من البدايات والنهايات. حكاية مقطوعة وعالقة في الزمن، لم تنتهِ ولم تستمر ولم تُنسّ!

أتأمل أحفاد شقيقاتي اللاتي يكبرنني ببضع سنوات. أتأمل أبناءهن وبناتهن الذين واللاتي أصبحوا وأصبحن أباءاً وأمهات، وأشعر بأن عُمراً طويلاً كاملاً قد فاتني بدونِ أن أحققَ فيه لنفسي شيئا أو أن أترك فيه شيئاً لأحدٍ من بعدي!

أنا لم أؤمن بمؤسسة الأُسرة يوماً ولا بمنظومتها. دائماً ما كُنت أؤمن بكينونةِ الإنسان كفرد مُستقل، بحرية الإنسان المطلقة التي لا يُقيدها قيد. لم أؤمن بالزواج ولا بالإنجاب ولا بالالتزام، لا الإجباري ولا الاختياري الذي قد تفرضه علينا تلك الأنواع من العلاقات الأُسرية وتُلزمنا به!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أعتبر يوماً أن الزواج والأبوة ربحاً ولا أن عدمها خسارة، لكن كوني المُتجرد الوحيد من هذا وفي هذا العُمر تحديداً أخافني! شعرتُ وكأنني الفرد الوحيد بلا شريك في سفينة نوح، الذي لن يكمله أحد ولن يتفرع أو يمتد منه أحد!

ابتعتُ سيارة فارهة بعد عودتي بأيام لأتعرف فيها على الرياض الجديدة. خشيت أن أستأجر في بداية عودتي أو أن أستعير إحدى سيارات العائلة فأشعر بمرونة الظروف وبمطاطية البقاء. خفت أن توحيَ إليَّ الأشياء المؤقتة بأن العودة ما تزال مواتية. أردتُ أن ألتزم بالبقاء، أن أشعر بأنه خياري الوحيد، أن أقطع كُل حبال التردد عني وكل خيوط ان العودة، فأضطر للبقاء والتكيف والتعايش مع الحياة الجديدة لي هُنا.

أتأمل التغيير الكبير وأُفكر: هل تغير كُل شيء فعلاً أم أن نظرة العائد الباقي المضطر هي من تغيرت؟!

ربما لم أكن أنظر لهذه المدينة نظرة الباقي فيها والمُنتمي لها. ربما كُنت أنظر إلى القشور وباستعجال، إلى الأسطح بلا تمعن ولا تأمل ولا تعمق فيها قد يكون وراءها وما قد تحمله خلفها.

حتى وجوه الناس وأعينهم التي تبدو أكثر أُلفة من خلف الكمامات، أفكارهم التي تبدو أكثر تسامحاً وعقولهم التي تبدو أكثر تحرراً

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ومرونة! ربما لم ألحظها قبلاً، ربما لم أسعَ ولم أكترث أصلاً بأن ألحظها!

أنا اليوم مضطر لأن أعيد تشكيل مفاهيمي تجاه هذه المدينة وتجاه من فيها. أنا مضطر لأتعمق بها أكثر، لمعرفتها أكثر، لعقدِ صُلح معها، لمُسامحتها وطلبِ المغفرة منها، لأن أُحبها وتُحبني، لأن نفتح معاً صفحة جديدة، نطوي بها كُل الخذلان وسوء الفهم وكل الخيبات السابقة!

أتأمل الحياة حولي والتي باتت أسرع مما كانت عليه. يُخيفني أنني تأخرتُ كثيراً. أحاول أن أربتَ على قلبي وأن أذكره بأن من يبدأ مُتأخراً خير ممن لا يبدأ أبداً!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يتغير زياد في كُل مرة أقابله فيها. يتجدد، يتلون، يكبر، ينضج، ويتطور. أشعر في كُل مرة نلتقي بها بأنه لا يشبه الرجل الذي قابلته في المرة السابقة إلا في هدوئه وخجله اللذين لم يتغيرا ولا يبدو بأنها سيتغيران.

لم ألتق بزياد منذ انتهاء بعثته وعودته للوطن إلا ثلاث مرات خلال ثمان سنوات. لم ننقطع طوال تلك المدة ورُغم المسافات الكبيرة التي تفصل بيننا، لكن التواصل عبر الرسائل ووسائل التواصل الاجتماعي لا تمنحنا الصورة الحقيقية للأشخاص مهما كُنا نعرفهم، ولم ولن تُعبر يوماً عن جوهر الإنسان مها أبدت لنا من ملامحه وأفكاره واهتماماته، خاصة وإن كان سريع التغير والتطور والتشكل مثل زياد!

لذا، كُنت ألمس في كُل مرة كُنت ألتقي به فيها تغيراته الواضحة والكبيرة بدهشة وتفاجؤ! كانت تدهشني مرونته في تقبل التغيرات. كانت قدرته على التطور السريع والتأقلم مع كُل الأوضاع تُثير استغرابي وتعجبي وإعجابي!

تزوج زياد ما إن أنهى بعثته وعاد إلى الوطن. تزوج زواجاً تقليدياً سريعاً ورُزق بثلاثةِ أطفال خلال ثمان سنوات. ابنه الأكبر يدرس في الصف الثاني الابتدائي، يماسس رأسه كتف زياد حينما يقف بجواره! يتحدث زياد عن زوجته بتحفظٍ شديدٍ وحب واضح. يقسم لي في كُل مرة أن الزواج والأبوة هما ما يجعلان الرجُل رجُلاً كاملاً، وبأنها

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

طريق السعادة الحقيقية الوحيد ودافع الإنسان الأعظم للعيش والتفوق والنجاح.

تُضايقني كلماته، تُثير غيرتي وتُشعرني بتفوقهِ وتقدمه علي، تشعرني بأنه حقق ما لم أحققه. هو الذي لطالما شعرتُ بالتنافسية معه رغم محبتي له، وبرغم أنني أُدرك تماماً أنه لم يسع يوماً لأن يتفوق عليَّ بشيء، ولم يحاول يوماً أن ينافسني في شيء، باستثناء تلك الحكاية العالقة بيننا والتي لم نتحدث عنها يوماً من بعدِ عودته وزواجه.

أُفكر دائماً في إن كان ما يزال يُحبكِ كما ما زلت أفعل. هل يتلصص عليكِ مثلي؟ أم أن الزواج والأبناء والعائلة قد طمسوا كُل ما كان ومن كان قبلهم؟!

أظن بأنني البائس الوحيد في تلك الحكاية! مضيت أنتِ ومضى هو في حياتيكما بعيداً عن بعضكما وبعيداً عني. تزوجتها وأنجبتها، وشغل كُل واحد منكما المكان الذي يُحبه والدور الذي لطالما تمنى أن يلعبه في الحياة.

أنا وحدي من بقيتُ أراوح المكان، بدونِ أن أُكمل حياتي وبدونِ أن أسترد ما ومن كانوا فيها. بقيت الإنسان العالق، غير القادر على المضي ولا النسيان ولا على الالتزام.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم تتوقف حياتي يوماً عندكِ. مضت حياتي واستمرت، لكنكِ بقيت عالقة فيها، لم تزعزعكِ سنوات الغياب، ولم تزحزحكِ كُل العلاقات اللاحقة.

مضت حياتي ولم تمضِ أنتِ منها. بقيت كغصةِ عالقة في قلبي. تجاوزتكِ ولم أتخطاك. بقيتِ في تلك العلاقة حتى بعدما خرجتِ منها.

ألتقيتُ بزياد بعد عودتي النهائية والأخيرة. كان سعيداً ومُندهشاً لعودتي المتوقعة وغير المتوقعة في الوقتِ نفسه، رغم أنني أخبرته قبل عودتي بأن العودة قد تكون نهائية هذه المرة بلا رجوع ولا تراجع، إلا أنه لم يُصدق نيتي ولم يظن بأنني قادر على أن أخطو خطوة كهذه الخطوة.

سألني بحماس عن خططي المستقبلية، ببساطة من يملك كُل شيء ومن وصل لمعظم ما خطط له في الحياة!

سألني إن كُنت أُفكر في الزواج، وفي لو كُنت قد اخترت العيش مع أهلي أو الاستقرار وحيداً بعد كُل هذه السنوات من الغياب. عن خططي العملية، وفي إن كُنت قد فكرت في جهةِ عمل معينة لأنظم إليها.

أخبرته بأنني قد قدمت أوراقي إلى جمعيتكِ التطوعية. دسست اسم الجمعية بحذر وبدونِ أن أذكر إنكِ تعملين فيها. كُنت أرقب ملامحه التي تغيرت بسرعة، وجهه الذي امتقع فجأة، وارتباكه الذي لم يتمكن من أن يداريه كعادته حينما يرتبك!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أعاد فنجان القهوة الذي مددته إليه ووضعه على الطاولة أمامه. سحب طرف شماغه وأرجعه إلى الخلف وأسند ظهره على مقعده وسألني بهدوء: لماذا هذه الجمعية تحديداً؟

- ولماذا غيرها؟

- لأنها تطوعية! منذ متى تهتم بالجمعيات التطوعية؟

- أصبحت أهتم.

- هل تقدمت لغيرها؟

- لا!

رفع بسبابته نظارته الطبية وعاد بظهره للخلف. تأملني صامتاً لدقائق. قال وهو يهز برجله بهدوء: ألن تنضج أبداً؟

أصبح الحوار مكشوفاً بيننا، ولم أرغب بالخوض فيه. قلت له وأنا أصب القهوة في فنجاني: فلنُغير الموضوع!

- ألن تكف عن هذا الأمر أبداً؟

- يبدو إنكِ لم تكف عنه أيضاً بدليل إنكِ تعرف من في المكان!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- أنت مريض على فكرة!

- وأنت ساذج!

- هذا تخبيب بالمُناسبة! أتعرف معنى التخبيب؟

- أنا لم ولن أخبب أحداً!

أكمل متجاهلاً: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليس منَّا من خبب امرأة على زوجها أو عبدا على سيده.» وقال: «لعن الله من خبب امرأة على زوجها.»

- أصبحت مُفتياً أيضاً!

- لأنك غير متزوج، لا تُدرك خطورة الأمر ولا مدى فداحته! هذه جريمة تُعاقب عليها شرعاً وقانوناً!

- أُعاقب على العمل؟

- لا تتذاكَ علي! ليس عليَّ أنا بالذات! كلانا يعرف لم اخترت هذا المكان تحديداً!

- وكيف عرفت أنت عمن في هذا المكان تحديداً؟

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- عرفت بالصُدفة البحتة!

قلت بسخرية: حقاً! احكِ لي الحكاية..

- دعك من السخافات! أنا لا أحتاج لأن أبرر أي شيء! أنت من يحتاج لأن يتجاوز الأمر! دع شيطانك يمضي ويعود من حيث أتى! افتح صفحة جديدة ولا تلتفت لماضٍ لا قدرة لك على تغييره!

- فلنغير الموضوع!

انحنى زياد إلى الأمام. التقط فنجانه وارتشف منه. نظر إليَّ وقال: يُخيفني إنكِ ما زلت كما عهدتك يا عبدالعزيز ! تُخيفني أنانيتك ويرعبني شيطانك الذي يأبى أن يدعها تعيش بسلام!

- وهل تعتقد أن من الممكن أن أؤذيها؟

- وجودك في أي مكان ستكون فيه سيؤذيها! أنت تعرف أن وجودك بحد ذاته مؤذٍ!

- زياد! فلنغير الموضوع!

زياد فنجانه على الطاولة أمامه. وقف وعدل شماغه وضع ومد يده إليَّ قائلاً: نلتقي قريباً بإذن الله. أكرمك الله!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أُصر عليه. صافحته وأوصلته حتى الباب. بقيت واقفاً حتى رأيت سيارته تبتعد. أزعجني أن يُغادر بهذه الطريقة من بعد طول غياب، لكن سوء ظنه بي أزعجني!

لن يفهم زياد ولن يفهم أحد، لكنك ستفهمين! وحدكِ من أؤمن بأنها ستفهم!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أشعر يوماً بأن الحياة تتداعى من حولي، حتى في أحلك أيامي وأصعبها وأكثر غربة ووحدة. دائما ما كُنت أشعر بأن لكل مشكلة آلاف الحلول، وبأننا قادرون كبشر على أن نعوض كُل شيء وأي شيء في الحياة ما دمنا على قيدها.

حتى عندما خسرتكِ وغادرتني، رغم الألم الذي اعتصر روحي ومزقها، كُنت على يقين بأنني سأقدر على أن أمضي، بأنني سأتجاوزكِ وسأعبركِ لمن ستليك، ومن ستُنسيني إياك فتصبحين مُجرد ذكرى..

استهنتُ بكِ كثيراً على ما يبدو! استهنتُ بما غرستهِ بي وبما وتدته في قلبي.

ظننتُ بأن أصعب أوقاتي ستكون في أول أيام فقدك ككل وأي فقد، لكن فقدكِ كان يكبر في كُل يوم، يتضاعف بعد كُل علاقة.

لم يعوضك أحد، ولم يُغنني عنكِ شيء!

كُنت أرقبكِ من بعيد، أُتابعكِ في كُل يوم، أحاول أن أتخيل نهاراتك الباكرة، وأن أتصور أمزجتك من خلالِ ما تكتبين.

لم يَكُن صعباً عليَّ أن ألتقط طرف الحكاية التي وقعت بها، لم أكن أجهلك فلا ألحظ إنكِ وقعتِ بالحُب من جديد.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أردتُ حينما أن استرجعكِ، أن أقطع دابر حكايتكِ الجديدة وأن أئدها وأنهيها وأمحيها، لكنني عولت عليكِ كثيراً عولت كثيراً على ما كان بيننا، وآمنتُ بأن من المستحيل أن تجدي فيها شيئاً مما كنا عليه ومما كانت عليه حكايتنا.

لم يصدمني شيء في حياتي بقدرِ ما صدمني منشوركِ ذاك!

صورة الخاتم الذي وضعته بجوار اسم ومعرَّف حُبكِ الجديد لم يَكُن يحتمل التأويل مهما حاولت ورغبت بتأويله. صفعتني!

انتهيتِ من حكايتنا باختصار! وتركتني مُعلقاً فيها بدونِ مواساة منكِ ولا حتى التفاتة!

كيف قررتِ أن تتزوجي هكذا؟! كيف قررت بدونِ أن تناقشيني في الأمر؟! بدونِ أن تستأذني مني أو أن تستشيريني به؟! كيف تداعت حكايتنا التي كان من المُفترض أن تبقى وأن تكبر وأن تُخلد؟! وكيف تجاوزتني أنا الذي لطالما كُنتِ تقولين له دائماً بأنه حُبكِ الأول؟! وكُنت أعرف وأؤمن بأنني الأول والأخير!

أتدرين؟!

كتبتُ لكِ رسائل كثيرة. كتبتُ لك في كُل يوم. كُنت أتراجع عن إرسالها في اللحظات الأخيرة. أكتب لكِ كُل ما يساورني وأحذفها قبل الإرسال!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ماذا عساي أن أقول لتتراجعي؟! وماذا عساكِ أن تفعلي لتنسيني هذه الخيبة؟!

لم أكُن لأُجازف بمعرفةِ قدري ومكانتي لديكِ، ولم تكوني لتثقي بي بعد كُل ما كان بيننا!

كُنت متمسكاً بأمل التراجع، وكُنت متمسكة بحتميةِ الاستمرار!

وتزوجتِ!

طويتِ الصفحة الأخيرة من حكايتنا، ومضيتِ وتزوجتِ..

كُنتِ تنشرين عدكِ التنازلي في صباح كُل يوم، من قبلِ زفافكِ بشهر وحتى يومه وأنتِ تعدين تنازلياً لموعدِ الزفاف..

كُنت أرقب أرقامك وهي تتنازل وتتضاءل وأعد معكِ، وأنا أُفكر هل تعدينها علناً من فرطِ الحراسة؟! أم لتعدينني أنا وتجهزينني للنهاية؟!

أنتِ الفطنة بما يكفي لأن تُدرك بأن رجُلاً أحبها بهذا القدر لن يقدر على أن يتخطاها فجأة! اللطيفة بما يكفي لأن تنسل من حكايتها معه تدريجياً بدونِ مفاجآت ولا مباغتة! الطيبة بما يكفي لأن تمسك بيده وتنزل معه وهي تعُد معه خطوات الرحيل، لتوصله لآخرِ سلم الحكاية مودعة ومُعلنة انتهاء هذا الفصل من حياتها وحياته.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يُخيل لي أحياناً إنكِ خفتِ مني! أردت أن أستوعب رحيلكُ نهائياً عني، فأعددتني بإعلانكِ وعدكِ للرحيل!

هل خفتِ أن أظهر في حياتكِ فجأة؟! أن أعود بدونِ أن أدري عمَّ وعمن استجد في حياتكِ فأفسدها أو أعكرها عليكِ؟

هل أردتِني أن أعرف عن بدايتكِ الجديدة وحكايتك الأُخرى كي تقطع عليَّ خطوط الأمل وأماني العودة؟! أردت أن تطبطبي عليَّ وتُمهدي الفقد والخسارة لي؟!

أمن الغريب ألا أستطيع التكهن بما بتِ تفكرين به؟! أنا الذي كُنت أقرأكِ كقصيدة، أن أفهمكِ بنظرة، أن أُقنعكِ بابتسامة، وأن أشعر وأستوعب وأعرف كُل ما يختلج بداخلكِ من دونِ أن تتكلمي وبدونِ حتى أن نتحدث!

أرأيتِ كم تغيرتِ ولم تتغيري؟! وكيف رحلتِ ولم ترحلي؟!

باغتِّني بقدرتكِ على المضي. لطالما آمنت بأنكِ مها ابتعدتِ لن تبعدي! أنا الذب لطالما آمنت بأنه مهما فارقت بيننا المسافات، ومها طالت مساحات الغياب بيننا ستعودين في نهاية المطاف إلي، وسأكون في نهاية الأمر لكِ.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف ما لذي خلّفه بداخلي زواجك! لكنها المرة الأولى التي شعرت بها أن الحياة فعلاً تنهار وتتشظى وتتداعى!

رغم المرات الكثيرة التي تركتني وتركتُكِ فيها، رغم الانفصال الأخير والطويل بيننا، إلا أنني لم أشعر بأننا فعلاً قد تفارقنا، ولا بإمكانية أن يكون لكل واحد منا مصير جديد مع شخص آخر .

صدمني زواجك! صدمني تخليكِ عني وإلحادكِ المُفاجئ بُحبنا!

لا أعرف كيف قدرتِ على أن تُحبي غيري؟! وكيف استطعتِ أن تختاري قدراً آخر لا أشاركِ فيه ولا يُفضي إليّ؟!

غلبتني هذه المرة! تمكُنتِ مني وقدرتِ في نهاية الأمر علي. فزتِ باللعبة الأخيرة!

فزتِ بدونِ أن تعرفي أو أن تتخيلي ما الذي فعله زواجكِ بي!

أُفكر في هذه الكتلة الضخمة الخبيثة من الألم التي زرعتها بداخلي. أُفكر في كُل اللاتي أحببني وهجرتهن. أُفكر فيها خلفته بداخل كُل واحدةٌ منهن من وجعٍ يُشبه هذا الوجع! أمن المعقول أنني قد قُمت بإيذاء كُل اللاتي عرفتهن مثلما آذيتني أنتِ بهجرك لي؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أم من المعقول أنني كُنت قاسياً ومؤذياً ولئيماً إلى هذه الدرجة؟! أأشعر بكل هذا جزاءً على ما فعلته بهن؟!

أتكونين أنتِ الجزاء؟! ويد العدالة التي طالتني جزاء على كُل ما اقترفته في الحُب من خطايا وأخطاء؟!

لم تَكُن نهاية علاقتنا دراماتيكية كما كانت بدايتها وما كان من المفترض أن تنتهي عليه لو أنها انتهت!

جاء انسحابكِ بطيئاً وصامتاً لدرجة ألا يلحظه أحد ولا يفاجئ أحدا بما فيهم أنا!

لم يَكُن رحيلكِ لائقاً ولا يشبه النهايات المتوقعة!

لا أعرف إن كُنت قد تعمدتِ الرحيل بهذا الشكل! أكُنت ماكرة حقاً لتنسلّي من بين يدي بهذه البساطة وتلك الخفة؟! أمن الممكن أن أكون قد أسأت تقدير قدرتك على التخلي والرحيل؟

كان من المفترض أن يكون رحيلك كارثياً، صاخباً وحاداً وجنونياً وقاسياً! كان من المفترض أن أتركِ أنا! لا لأنك تستحقي الهجر ولا الرحيل، بل لأن هذا ما تفترضه البديهيات، وما تؤكده مؤشرات وعلامات وشكل العلاقة طوال السنوات الطويلة التي قضيناها معاً. هذا ما يتوقع مني وما يُستبعد بل يستحيل منكِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كيف قدرتِ على تغيير خارطة علاقتنا؟! كيف تلاعبتِ بدروبها ورسمتِ لكل واحد منا درباً جديداً هادئاً وبعيداً عن الآخر، وبدونِ أن تلتقي دروبنا أو تتقاطع؟!

كيف ظننتِ إنكِ تستطيعين اجتثاثي من تاريخك ومن جغرافيتك ومن حاضركِ ومستقبلك؟! وكيف توقعتِ أن أرضى بهذا؟! أن أقبل به وأن أتخلى عن كُل العوالق وأمضي مُستسلماً وراضياً وقانعاً؟!

ألم تعرفيني حقاً؟! أم أنني من لم يعرفك ولم يُقدرك حق تقدير؟!

قد يمر كُل واحد منا بأكثر من حكاية حُب، يكره بعضها بعدما تنتهي، يحن إلى بعضها بعد ما يمضي، يتذكر بعضها ببهجة، ويحاول أن يمحي بعضها من ذاكرته وذكرياته وتاريخه وخلايا جسده.

حظيت معكِ بتلك الحكاية. الحكاية الوحيدة التي شعرت فيها بأنني مهما غبت سأعود لأجدكِ، وبأنكِ ستغفرين لي مها أخطأت. كُنت المرأة الوحيدة التي شعرت بانه مها باعدت بيننا الحياة ستظل عكازي حينما أحتاجها. أنتِ لو خسرت بصري أو فقدت الوحيدة التي ستكون معي قدمي أو استؤصل لساني!

أنتِ من سيُدافع عني لو أجرمت، من سيزورني لو مرضت. أنتِ من سيبكيني ويتذكرني ويُحبني رغم كُل عيوبي وأخطائي.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أعرف أنني سأكون لك هذا الرجل في المقابل، أردتُ ذلك أو لم أُرده. إن كُنت لي أو لم تكوني معي، أكُنت في صباك أو في شبابك أو في كهولتك أو حتى شيخوختك! سأكون لكِ ذلك الرجل في أي رقعة كُنت أو في أي عُمر وفي أي حال!

لن تتكئي في حاجتكِ لسواي، ولن أسمح بأن تحتاجي لي يوماً ولا تجديني. فلم قسيتِ عليَّ وعلى نفسك بهذا ات الشكل؟! كيف ظننتِ بأنكِ قادرة على أن ننتهي؟!

الا أحاول أن أتكيف وأن أتعلم من مُعضلة العودة. أحاول أن أتشكل فيها وأتماهى مع حقيقتها، أن أعتاد عليها وأن أُلبسها ثوب الواقع، لكنني لا أشعر بأنني طرف حقيقي فيها. أشعر وكأنني مُتفرج على مُدرج مسرحها، أترقب أحداثها بملل وأنتظر نهايتها بدونِ أن أُحدث فيها أي شيء أو أن أغير فيها أي حدث.

سأظل خارجاً عن كُل النصوص، وبعيداً عن كُل الحكايات التي من المُمكن أن تُنسج هنا. سأظل غريباً دخيلاً مُتطفلاً.. ومُستغرباً، بين أهلي وعلى أرضي!

لا شيء قادراً على أن يعوضَ سنوات الغياب. لا شيء قادراً على أن يلئم تلك القطيعة ويرقع ذلك الشق الفاصل بيننا مها حاولت ورغبت في إصلاحه.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أحب أن أُفكر كثيراً فيها مضى، ولا فيها قد يحدث وما هو آت. أنا رجُل آني، أتكئ على اللحظة الآنية، على ما يحمله الحاضر وما أعيشه فيه. لا يجرني إلى الماضي سواكِ، ولا يُغريني في المستقبل إلا ما قد يجمعني بكِ ويقودني إليك يوماً.

أشعر الآن بأنني فاقد للسيطرة تماماً، رغم أنني لطالما كُنت المسيطر على كُل شيء، والقابض والمُتحكم بكل شيء.

جئتُ مُتأخراً! مُتأخراً جداً! لم يفتني القطار، لكنني كُنت الراكب الأخير فيه، الراكب الذي سيقضي ما تبقى له من رحلة العُمر واقفاً ومُتشبثاً بالعامود كيلا يختل توازنه فيقع. الراكب الذي يرقب بقية الركاب ممن هم في عُمره ومن هم أصغر منه وهم مُسترخون ومرتاحون في مقاعدهم التي حجزوها مبُكراً وفي الوقت المُناسب على العكس منه.

أُفكر، هل سيُخيفكِ ظهوري المفاجئ؟ هل ستفزعُكِ عودني وهل ستشكين ولو لحظة أنني قد أنوي إيذاءكِ بها؟

أنتِ التي كُنتِ تزأرين في وجهي في كُل مرة كُنت أهددك بأن أؤذيكِ فيها: أتحداك!

كُنتِ تنتفخين كلبوة متوحشة، تقتربين مني، تلمع عيناك بتحدٍ سافر وتقولين بكلمات كُنت أشعر بها تخرج من بين أضراسك بطيئة، متحدية، وبدونِ أن يرمش لكِ جفن: أتحداك!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت ذكية بما يكفي لأن تُدركي أن رجُلاً مثلي مهما كان مؤذياً وقاسياً بطبيعته، فلن يقدر بعدما تمكُنت منه أن يؤذيكِ إلا بجهلهِ وليس بودهِ ورغبته ومهما كانت تستفزه وتُثيره وتفقده صوابه التحديات!

لم تخافي مني قبلاً وقد كُنت معنية ومُتعلقة بي ومعولة علي، فهل تخافين مني الآن بعدما تحررتِ من كُل ما قد يربطك بي ولم يَعُد هناك ما تخافين خسارته معي؟!

لطالما كُنت الطرف الأقوى، المُتحكم بشكل وطريقة وطبيعة علاقتنا. تلاعبتُ بعلاقتنا كثيراً، عبثتُ بمشاعركِ كثيراً، لكنكِ انتقمتِ في نهاية المطاف، سدّدتِ قبضتكِ القاضية باتجاهِ قلبي في وقت لم أتوقعه ووضع لم أستعد به!

أجهزت علي! باغتني في الوقت المُناسب، وقضيتِ على علاقتنا بطريقة لم أتوقعها ولم أتخيلها يوماً!

أترانا تعادلنا؟! أسدّدتُ لك كُل ديوني؟! إخلاصكِ مقابل تلاعبي بك! زواجكِ مقابل وحدتي! ماضيي مُقابل مُستقبلك!

أحاول أن أتخيل حياتك الجديدة، أجلد ذاتي بتخيل تفاصيلها. تتراءى لي تفاصيل يومك الكبيرة والصغيرة معه. أتخيلكِ معه بكُلِ الأوقات وكل الحالات، حتى في الحميمية منها، لكني لم أقدر على أن أتخيلكِ

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مع الطفلين! تأبى مُخيلتي أن تتخيلكِ معهما أمًّا لهما! يحملان مزيجاً من ملامحكِ وملامحه! لا قدرة لي على أن أتخيل أن تُنجبي للعالم أطفالاً من رجُل غيري!

كيف قدرتِ على أن تُنجبي للعالم أطفالاً لا يشبهونني ولا يحملون اسمي؟! أطفالاً ليسوا مني؟! لا تجري دمائي في أوردتهم ولا يحملون جيناتي الثائرة المُتمردة الشقية التَعِسة!

أن تتزوج امرأة رجُلاً ليس مثل وكما أن تُنجبَ منه! حين تُنجب المرأة من الرجل تمنح علاقتها سمة الشراكة الأبدية، يظلان شركاء مها فعلت الحياة بشكل ومُسمى علاقتها، حتى لو انهارت زيجتها وانفصلا، سيظلان شركاء في حياة ما، وسيربطها ذلك الرابط الذي لا يُضاهيه في متانته أي رابط! من سيقدر على أن يُنسيكِ من جعلكِ أماً؟! من سيقدر على أن يمنحكِ ما منحكِ إياه من مشاعر لم يسبق لكِ المرور بها ولا الشعور فيها؟!

أحببتُكِ قبلاً! أحببتُكِ أكثر بكثيرٍ مما أُحبكِ ومما يُحبك ومما سيُحبكِ! أحببتُكِ كحب نيرون لبوبي سابينا! حُباً أعمى، شريراً وأهوجاً! لكنني لم أجعلكِ أماً! لم أهبكِ الحياة من خلالِ الأمومة ولم أضع الجنة تحت قدميكِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

خاسرٌ أنا في معركتي معه! حتى وإن استرددتُكِ، فلن أقدر على أن أُعطيكِ ما أعطاك حتى لو قدرتِ على أن تُنجبي مني قبيلة من الأبناء! سيظل هو من جعلكِ أماً ومن شاركِ تلك الدهشة الأولى التي لا تتكرر حتى بتكرارِ التجربة!

أُدرك أن تاريخ علاقتنا الطويلة وذكرياتنا الكثيرة العميقة والُممتدة لا تُعادل لحظة واحدة في تاريخ أمومتك. أعرف إنكِ أحببتني كثيراً! أحببتني جداً! وبأَنني كُنتِ تجربتك البِكر وحكاية عُمرك الكبيرة! لكنني أدرك أن امرأة مثلك أما بطبيعتها، أما من قبل أن تُصبحَ أمًّا، لن يشبع مشاعرها في الحياة مثلما ستفعل بها الأمومة.

سترجح كفة الأطفال أمام كفتي. ستميل وتثقل كفة الأمومة أمام كفة الحُب. سيكسبون هم أمهم لمجرد أنها أنجبتهم، وسأخسر أنا حبيبتي لمُجرد أنها لم تُنجبهم مني!

أحاول أن أتخيل كيف قد تكون الأمومة قد غيرتك، وأي دفء قد يزداد على دفئك!

أتذكر كُل اللحظات التي مارستِ بها أمومتك علي، انتِ الناضجة بقلب يافع، الغرة ببصيرة وحكمة شيخ، الأم رغم عذريتها، والعذراء رغم أمومتها!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أعرف أنني لن أقدر على تجاوزكِ حتى وإن أُنجبت من غيرك، وأعرف أنني لن أجرؤ على أن أنجب ما لن يكونوا منكِ، لم أُخلق لأكون أباً لأطفال لا يشبهونكِ ولا يجيئون إليَّ من خلالكِ.

أشعر إنكِ تجاوزتني بمُجردِ أن تركتني، وعلقتُ بك أنا حالما غادرتني!

«فيصل وتركي».. لم تَكُن هذه أساءك. هل تغير ذوقكِ في الأسماء؟ أم إنكِ أحببتِ ذوقه وطاوعته في أسمائه؟

مرنة أنتِ ومطاطة رغم استقلاليتك. تعرفين متى تتنازلين ومتى تتراجعين ومتى تتصادمين. متى تخنعين كقطة ومتى تتوحشين كلبوة. متى تغفرين كيمامة ومتى تنتقمين كأُنثى ذئب!

هل خطرت في بالكِ أسماؤنا؟! هل طرأت في بالك لوهلة؟ هل أعادتكِ إليَّ فطردتني عمداً باستبعادها؟! أم إنكِ محيتِ كُل ما ارتبط بوجودي في ذاكرتك قبلاً وكأن شيئاً لم يَكُن فلم أعُد أعرج عليها أو حتى أمر بها؟!

«عبد العزيز مر من هُنا»!

كُنت أسخر منكِ دائها! أقول لكِ بثقة بأن أي شخص سيقترب منكِ أو سيعرفك سيُدرك جيداً بأنني مررتُ من هُنا وبقيتُ هُنا، لكنني فيما يبدو

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مررتُ مرور الكرام ولم أقدر على البقاءِ فيها، فلم ولن يدرك أو يشعر بمروري أحد.

أتعرفين بأنني لم أبكِ عليكِ عندما تزوجتِ! لم أبكِ تلك الليلة. غالبتُ مشاعري. انكفأتُ على نفسي، طبطبت عليها ولم أعذبها، لكنني بكيت طويلاً حينما عرفتُ إنكِ أنجبتِ. شهقتُ كيتيم! انهارت كُل الآمال التي تعلقتِ بها رغمًا عني! شعرتُ حينما بأنك قد قطعتِ عليَّ كُل السُّبل، قضيتِ على كُل الآمال والاحتمالات بإنجابك من غيري!

لا شيء قادراً على أن يُعيدكِ إلى ما كُنا عليه. الأمومة انتشلتكِ من عالمي إلى عالمٍ آخر لا يشمل أمثالي ولا يضمهم. حتى لو انفصلتِ عنه وتركته، فلن تعودي يوماً إلى عالمي!

أُفكر دائماً: لم أنجبتِ بسرعة؟! لمَ لم تعطني فرصة استيعاب زواجكِ ولا فرصة التصرف حياله؟!

عشرة أشهر ما بين زواجك وأمومتك، أقدمتِ على الأمومة بيقين الواثق من ديمومة الحُب وأبدية الزيجة. لم تعطِ نفسكِ فرصة كُرهه. لم تُعطِهِ هو فرصة خذلانك، ولم تعطني أنا فرصة استعادتك!

لم تحتفظي بحقكِ في تجربة علاقة الزواج كتجربة تحتمل النجاح، وتحتمل الفشل ككل العلاقات وكل التجارب. تنازلتِ عن قدرتك على

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الانسحاب منها باستعجالكِ في حسن الظن وتوقع النجاح. جازفتِ بلا ضمانات بيقينٍ غرّ وإيمان ساذج!

أعرف أن مثيلاتكِ لا يتراجعن من بعد الأمومة. أعرف إنكِ لم تُقدمي عليها إلا وأنتِ واثقة من إنكِ لن ترغبي بأن تتراجعي بعدها، لذا بكيت كثيراً حينما عرفت بأنك أنجبتِ، كُنت أعرف إنكِ قد تعاقبينني بالزواج. قد تتزوجين لمُجردِ أن تُعاقبيني، لكنك ستنتهين مني بالإنجاب بلا شك، ستنتهين مني تماماً ومن غير رجعة!

لأنني أتساءل دائماً: لم أُفكر دائماً فيها ستقدرين عليه وما ستقدمين عليه؟! لم لا أُفكر في مقدرتي على أن أسامحكِ على زواجكِ من غيري؟! وهل أنا قادر على أن أستمر في أن أُحبكِ لدرجة أن أتجاهل إنكِ كُنت لأولِ مرة وكُلياً مع رجُل آخر.. رجُل غيري؟!

لم أكن لأغفر لك قبل عشر سنوات مُجرد نظرة لرجل آخر، لكنني مضطر اليوم لأن أتنازل! أشعر أنني سأقدر على أن أتجاوز زواجك. ربما سأقدر على أن أقبل أطفالكِ من غيري، على أن أكفلهم وأن أربيهم، وأن أحبهم كما لو كُنت والدهم.

قد أقدر على أن أُحبهم لُمجردِ إنكِ أمهم. ربما سيكفيني أن تكوني أمهم!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتذكر مكالمتُكِ الأولى معي بعد انقطاع علاقتنا وانتهاء دراستكِ وعودتك إلى الوطن. جاءني اتصالكِ بعد عام من القطيعة. كان رقاً أمريكياً، وكانت مُكالمة صامتة تماماً، مكتومة الصوت والأنفاس. كُنت قد عرفت إنكِ في أمريكا من خلالِ مُتابعتكِ في تويتر. لم تتفوهي بحرف، ولم أُناديكِ باسمك. احتجت لأن تُبادري بالتواصل مثلها بادرتِ بالاتصال. كُنت أعول على شجاعتك، لكنكِ خذلتني ولم تتشجعي، خذلتني المفاجأة وخذلتكِ الشجاعة!

بقيتُ على الخط أتنفس صمتك حتى قطعتِ الاتصال. سجلت الرقم باسمكِ وتوقعتُ أن تعاوديه. مرت أسابيع بدونِ أن تتصلي من جديد. كُنت أفز من نومي في كُل ليلة مُتخيلاً صوت الهاتف ليفاجئني صمته بدونِ اتصالكِ أو، باتصالات من غيرك.

قررت أن أبادر أنا وأن أتصل بعد مرارة الانتظار. قررت أن أمد إليكِ حبال الوصل هذه المرة، ما دُمتِ قد أكرمتني ومددتِ لي بشيءٍ منها وإن كانت على مضضٍ وعلى استحياء. رُسمت في ذهني صور ذهنية كثيرة لما قد يدور في الُمكالمة بيننا، نُسجت في مخيلتي الكثير من السيناريوهات، استعددتُ لكل العتب ولكل ما قد يُثار وما قد يُقال! كُنت مُستعداً لأن أعاتبكِ ولأن أُغازلكِ، لأن أسخر منكِ، أضحكك وأضحك عليكِ، أبكيكِ وأبكي معك، أداعبكِ وأبدأ معك صفحة جديدة بأي صورة وبأي طريقة، لكنكِ فاجأتني ولم تُجيبي على اتصالي أبداً! ظننتُ إنكِ

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

بحاجة لأن تلملمي ارتباكك وما بعثرته المفاجأة، لكنكِ لم تردي على اتصالي نهائياً.. أبداً!

وأُفكر كثيراً: لم اتصلتِ تلك الليلة إن كُنت غير راغبة ولو قليلاً بأن نعاود التواصل؟! لم اتصلتِ إن لم يَكُن هُناك ما يُقال؟! ما الذي وجدته في صوتي تلك الليلة التي رددتُ عليكِ فيها، فكان آخر اتصال أتلقاه منكِ في حياتي؟!

ما الذي كُنتِ تتوقعينه مني مُقابل صمتك؟ ما الذي رغبتِ بقوله بسكوتكِ؟! لماذا ودعتني بلا كلمات؟! ولم عشمتِني بالرجوع ومن ثم بادرتني بالغياب؟!

من علمكِ بهذه السرعة مناورة الجفاء ولعبة الصدود وفن القسوة؟! من غيركِ؟! فلم تعودي «البنت» التي عرفتها وأحببتها وفهمتها! فلم أعد قادراً على أن أتوقع كيف تُفكر وكيف تحس وبمَ تشعُر وعلى ماذا تنوي وإلى ما ترمي؟!

أتخيل كيف قد يكون لقاؤنا الأول من بعد هذا العُمر وهذا الغياب! إلى أي درجةٍ ستكتنفه الغرابة وإلى أي حدٍ سيحتمل قسوة الظنون وصراحة المخاوف وحدة الأسئلة؟! إلى أي مدى قد يطول العتاب وإلى أي درجة قد تُغيرنا السنوات على بعضنا فنغدو غريبين على بعضنا، متوجسين من بعضٍ ومُختلفين عما كُنا عليه في عُمرنا معاً!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أخاف كثيراً أن تتغيري! لا أتخيلكِ إلا كما وبما كُنتِ عليه! لا أقدر على أن أتخيل ما فعلته بكِ عشر سنوات كاملة بدونِي وبعيداً عني! أُريدكِ كما كُنت وحيث ما كُنا! لا أريد أن أخسر عُمراً جديداً تائها ما بين كينونتك وصيرورتك! لا أُريد أن أخسر البنت التي كُنتِها والولد الذي كُنته رُغم ثلاثينياتي حينذاك!

لم أكن أريد أن أفقدكِ، لكنني خسرتُكِ بتهوري وطيشي، وخسرتني أنتِ بعزةِ نفسكِ وبتعالي كرامتكِ!

لو كُنت قد تنازلتِ تلك المرة، فلمَ لم تتنازلي قليلاً؟! لمَ لم تغفري؟!

أتعرفين بأنني ما زلتُ أحفظ رقم هاتفكِ حتى الآن؟! تدهشني هذه الذاكرة التي لم تنس أرقامكِ ولم تحذفها رغم مرور عقد من الزمن المُهمل، والتي لم أستخدمها فيه! لا أعرف كيف باتت أرقامكِ عصية على النسيان رغم ذاكرتي المهترئة ورغم أنني لا أحفظ أية أرقام غيرها!

أتعرفين بأنني لم أُغير رقمي كيلا تتيهي عني في حال ما احتجتني يوماً؟!

ما زلت أنتظر تلك المُكالمة! ما زلت أتوقعها في أي يوم وأي لحظة! أشعر دائماً بأنني قاب قوسين من تلك المكالمة! ما زلت مُتيقناً من أنها

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ستحدث ذات يوم، وبأن ذاكرتكِ لن تطرد يوماً أرقامي ولن تنساها! بأن أرقامي وعناويني ستظل نشطة في دماغك ومحفوظة في أعصابك، لن يغمرها حُب شخص جديد ولن يطمرها رقم آخر!

أدخل على بريدكِ القديم بين الحين والآخر، البريد الذي ما يزال اسمي وتاريخ مولدي هو كلمته السرية، لا تتلقين عليه أية رسائل شخصية جديدة، تحتفظين به برسائل قديمة بما فيها رسائلي لكِ، لكنكِ ما زلت تستخدمينه حتى الآن! أجد دائماً رسائل رسمية ورسائل إعلانية مقروءة ومحذوفة في سلة المهملات، وهذا يعني إنكِ ما زلتِ تفتحينه وما زلت تطلعين عليه مثلي!

لا أفهم لم تفتحينه بين الحين والآخر ؟! أتنتظرين عليه رسالة مني مثلما أنتظر أنا منكِ تلك المكالمة؟!

كم بوسعنا أن ننتظر؟! ولم علينا البقاء طويلاً وبلا موعد على كراسي الانتظار؟!

أُدرك إنكِ تعرفين أنني أطلع على بريدكِ، أفتح بعض الرسائل أحياناً وأتركها كمقروءة بدونِ حذف، لتعرفي أنني قد دخلت واطلعت عليها، فتقومين بحذفها ببساطة وكأنكِ تردين على تحيتي بأن تُحيننني من خلالِ إكمالِ وإنهاء ما بدأته!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ تُدركين أنني أتركها مفتوحة عمداً لتعرفي أنني من قرأها، وأنا أعرف إنكِ لم تُغيري كلمتكِ السرية عمداً أيضاً، لنلتقي دائمًا في ذلك الصندوق الذكرى وتلك المساحة الافتراضية من دون أن نتحدث أو أن نتواجه!

أنا لا أُفكر بكِ كُل يوم، لكنني أُفكر بكِ كثيراً.. أُفكر بكِ حينما أسمع أُغنية حُب، عندما تُمطر، وعندما أشاهد الأفلام الرومانسية! أُفكر فيكِ حينما أرى عاشقين يمسكان بأيدي بعضها، وحينما أستقل الطائرة، وأمام الشواطئ الدافئة، وعندما أتسوق وأجد فساتين حريرية طويلة أو معاطف شتوية بألوان الباستيل كما تُحبينها. أُفكر بكِ عندما أرى عقود وأقراط اللؤلؤ التي لطالما كُنتِ ترتدينها، وأتذكركِ حينما أجد ألواح الشكولاتة البيضاء أو أجد في قوائم المقاهي مشروب الشكولاتة الساخنة. أتذكرك حينما أستمع إلى عبد المجيد عبد الله وعبادي الجوهر وطلال مداح الذين أحبهم، وويتني هيوستن وفيروز اللتين تُحبينها. أذكركِ حينما تمر بجواري سيارات المرسيدس، وحين أجد حولي الزنابق البيضاء والفراشات الملونة.. أذكركِ في كُل مرة أتعرف بها على امرأة جديدة، وفي كُل ليلة أنام بها مع امرأة. أذكرك عندما أشم روائح الفانيلا والقرفة التي تفضلينها في عطورك، وعندما أقابل امرأة أو طفلةٍ بشعر طويل مُجعد. أُفكر بكِ كثيراً حين يأتي يونيو شهر مولدك يا جُمان، وعندما أرى أو أجد أي رقمٍ يحمل الرقم 6!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أُفكر بكِ طوال الوقت، لكنني أُفكر بكِ كثيراً!

أتدرين؟!

زرت موريشيوس قبل عامين. أجلت زيارتها طويلًا بانتظارِ أن نزورها معاً. لم أفقد الأمل في أن نزورها يوماً، لكنني أردت أن أكافئ صبري في انتظارك، فزرتها بدونِكِ هذه المرة..

أعرف من مُتابعتي لكِ في وسائل التواصل الاجتماعي إنكِ لم تزوريها. ذهبتِ مع زوجكِ لجزر كثيرة لم تَكُن من ضمنها، وكأنكِ تحتفظين بهذا الحق لي، أو كأنكِ تُحرّمينه عليكِ من دوني، أو ربما أنا أتوهم كُل هذا ولم تسنح لكِ فرصة زيارتها ببساطة!

لم تَكُن رحلتي لموريشيوس سعيدة، ولم تَكُن تعسة أيضاً! زرت قبلها سيشيل والمالديف وبعض جزر شرق آسيا لغرض الغوص، وبقدرِ ما كُنت مستمتعاً بزيارة تلك الجزر والتأمل أمام تلك الشواطئ، إلا أنني شعرت في موريشيوس بأنني في المكان الخطأ! المكان الذي لم يَكُن من المفترض أن أزوره وحيداً، ولا أن أكون به مع أحد سواكِ!

كُنت هُناك وكأنني في حالة انتظار، أبحث في الوجوه عن ملامحكِ، أتخيلكِ بين الأشجارِ وحقول الشُكر هُنا، وأتصور ما قد تفعلينه على

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الشواطئ البيضاء هناك! يتراءى لي ما قد نفعله هُناك سوياً، وكيف كُنا سنقضي رحلة العُمر معاً!

كُنت أُفكر بكِ طوال الرحلة، وكيف أنني خذلتُكِ فذبحتني!

كان من الُمتوقع أن تُبادلي خذلاني إياكِ خُذلاناً! كان من المفترض أن نتراشق الخذلان والخيبة، وأن نتعادل ونتصافى ونعود إلى المكان الذي لطالما كُنا فيه.

كان من العدلِ أن تتزوجي بعدما تركتِكِ عشرات المرات، خاصة بعد أن تزوجتُ شبه الزيجة تلك من ياسمين.

كُنت أتوقع أن تُعاقبيني على زواجي منها حتى بعد أن سامحتني. ربما لذا تركتُكِ بعدها، ربما خشيت غفرانكِ ذاك! كانت مغفرتكِ غريبة ومسامحتكِ مُبهمة، لذا خفتُ وتوجست من مغفرتك المؤامرة!

بعض الغفران مُريب، مُبهم ولا يُفهم! لذا شتتني غفرانُكَ وشككني فيها قد يحمل خلفه وما قد يكلفني بعده!

تزوجتِ! باغتّني بزواجكِ لكنني غالبت رجولتي وقبلت بأن تمري وتنتهي من هذه التجربة. كُنت سأتناساها وأغض الطرف عنها، وأقبض على قلبكِ بقوة بيدي وأمضي معك غافراً لكِ هذه الزلة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لكنكِ تزوجتِ منذ ست سنوات وزواجكِ مُستمر الآن!

لقد أصبحتِ أماً! فكيف سأقدر على المغفرة وكيف بإمكاني أن أسامح؟!

ليس من حقكِ أن تبعثري مشاعري إلى هذه الدرجة! ليس من المفترض أن تظل سعادتي مؤجلة وأحلامي مُعلقة بسبب تغيير مفاجئ وطارئ في خريطة حكايتنا! ليس من حقكِ مغادرة الحكاية فجأة وطي الصفحة بمن يُحبكِ فيها!

أنا لم أُحبكِ لأنتهي بدونِكِ! لم أغرق بكِ لأنجو منكِ! أنا لم أختر أن أعرفكِ، فكيف سأقدر على أن أختار المُضي بدونِكِ ونسيانكِ!

عشر سنوات مضت يا جُمانة! كان من المفترض أن أُحب خلالها مئة مرة ومرة، عرفت خلالها الكثير من النساء، لكنني لم أقابل فيها امرأة واحدة قدرت على أن تُنسيني إياك أو على أن تحل مكانكِ!

ملعون أنا بك! ملعون هو حُبنا وملعونة هي حكايتنا! ولا أعرف متى وأين وكيف سأتحرر هذه اللعنة! ومتى سيحل عليَّ الخلاص!

أُفكر اليوم فيها يُريد الله أن يوصله إلينا من خلالِ هذه الجائحة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُدرك بأن هُناك الكثير من الأشياء التي لا تُعامل ببساطة مها حاولنا تسخيفها وتبسيطها. أكثر الأشياء التي نحتاجها حقاً في الحياةِ لا تشترى ولا تُباع!

ربما يكون هذا الدرس الأول الذي نتعلمه مما حدث خلال هذه الأزمة غير المفهومة!

لا قدرة لنا على شراء وطن، ولا صحة، ولا حُب، ولا طمأنينة، ولا حتى أطفال من صلبنا! هذه الأشياء لا تُباع ولا تُشترى!

أُفكر فيها أنا قادر على مقايضتهِ بكِ، في كُل الأشياء التي قد أقبل بالتخلي عنها لتعودي. أُفكر كيف ولمَ لم تُشعريني بخطرِ خسارتك؟! وكيف كُنت واثقاً ومطمئناً لوجودكِ، لدرجة أنني لم أتخيل فقدكِ يوماً! لم تُشعريني يوماً بالتهديد، كُنت واثقاً من إنكِ ستكونين لي ومعي مهما فعلتُ ومهما ابتعدتِ!

كُنتِ من مُسلّماتي! ليس بخساً في حقك، لكنها ثقة بحُبكِ وبما كان يربط بيننا.

أنا نادم، ومثلي لا يندم على الكثيرِ من الأشياء..

نادم أنا على مُجاراتكِ في الغياب، ونادم على عدم العودة حينما سنحت لي الفرصة أكثر من مرة ومرة..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان الوطن كريماً معي في كُل شيء وفي كُل الأوقات، كان فاتحاً حضنه لي طوال الوقت، مادًّا إليَّ ذراعه ومُبتسماً في وجهي بكل حالاتي، وغاضًّا الطرف عن كُل عيوبي كأبٍ حنون، لكنني لم أجرؤ على العودة، ولم أجرؤ على التمسك بكِ.

كُنت أتوقع منكِ ما عودتني عليه. كُنت أنتظر منكِ ما تقومين به دائماً، أن تبتعدي عني وترتدّي إليّ!

لم يَكُن من المفترض أن تغيبي إلى هذه الدرجة! لم يَكُن من المتوقع أن تبتعدي إلى هذا الحد!

«خمرةُ الحُب اسقنيها

هم قلبي تنسِنيه

عيشةٌ لا حُب فيها

جدول لا ماء فيه»

أرفعُ من صوتِ الراديو. يقتحمني صوت صباح فخري بقوة لا تليق بمن اقتحم الحاضر قادماً من الماضي البعيد!

لم أسمع هذه الأغنية منذ أكثر من عشرِ سنوات، منذ أن غادرتني غاب الطرب الذي تُحبينه والذي أحببته من أجلكِ. لم يصدف وأن سمعت

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

خمرة صباح فخري وزهرة وورود زكي ناصيف منذ أن رحلتِ. لا أظن أن أحداً ممن حولي يعرف هذه الأغاني. العجائز فقط من يعرفون ويحبون تلك الأغاني القديمة.. أنتِ والعجائز!

أتساءل: أما زلتِ «دقة قديمة» كما كُنت أُسميك ؟! أما زلتِ تُحبين أغانيك القديمة؟! أما يزال ذوقكِ فريداً وخاصاً؟! أم فعلت الحياة بأغانيكِ مثلما فعلت بكل ما يتعلق بكِ فتغيرت أغانيكِ ما تغيرت أسماؤكِ التي كانت أسماءنا؟!

أظن أنني لم أتغير، أو ربما تغيرت ولم أتغير. ربما أنا مثلكِ.. بين البينين! ما زلتُ كما كُنت مع بعض التغييرات وشيء من التطورات. خف عنفواني، تراجعت حدتي، لكن أفكاري لم تهدأ. ما زلتُ مُتذمراً، متسرعاً، سريع الحكم على الآخرين وبدونِ اكتراث بهم.

أُفكر: ما الذي قد يكون قد تغير فيك؟! ماذا عساه «هو» أن غيَّر فيكِ؟!

لا يترك كُل من يمر في حياتنا بصمته عليها، لكننا في الزواج نتطبع ونتطابع، نتناسخ أحياناً وأحياناً نتكامل في بعض الأحيان.

وأنتِ بقدر استقلاليتكِ وتفردك، بقدر ما أنتِ قادرة على أن تتكاملي في الحُب، وعلى أن تتطبعي بطباعِ من تحبينه، ولا ليكون أباً لأطفالكِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

شك عندي من إنكِ أحببته، أحببته كثيراً، وإلا لما اخترته مثيلاتُكِ لا يتزوجن اعتباطاً ولا يخترن عشوائياً. مثيلاتكِ لا تختار لهن الأمهات، ولا يخطط لهن آباؤهن زيجاتهن. مثيلاتكِ حينما يتزوجن، يتزوجن مع سبقِ الإصرار والترصد، بروحٍ حُرة، وإصرار وقوة وعنفوان زهرة برية!

بحثتُ وأبحث عن زوجكِ كثيراً، أُتابعه على وسائل كاملاً سبق التواصل بمعرّفٍ رسمي يحمل اسمي الثلاثي وأن رددتِ على إحدى تغريداته مرة، مُعلقاً على قضية تخص الشأن العام. رد عليَّ بلطف كعادته حينما يرد على متابعيه، ورددتِ أنتِ على نفس التغريدة وأعدتِ تغريدها وكأنكِ تقولين لي بأنك قد قرأتها ولم تهتمي ولم تكترثي ولم تخافي!

أمن الغريب أن أُتابعه باسمي الصريح وأن أُتابعكِ أنتِ بمعرفات وهمية؟! لا شك عندي من إنكِ تعرفين أنني خلف ذلك المعرف! كان واضحاً بالنسبةِ لك. يحمل اسم مقهانا القديم الذي كُنا نقضي فيه مُعظم نهاراتنا!

أمن الغريبِ أن أثق بردةِ فعله حتى وإن عرفني وألا أثق بردةِ فعلكِ أنتِ! أمن الغريب أن أنكفئ على اسمي أمامكِ وأغطيه وكأنني أخجل منه أو أخاف منكِ عليه؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف إن كُنت قد تابعتكِ بذلك الاسم الوهمي خوفاً منكِ أو خوفاً عليك! خفت أن تُغلقي في وجهي الأبواب، وخفت أن تُغلق عليكِ كُل الأبواب في حال ما كانت مُتابعتي لكِ تزعج شريككِ أو تستفزه!

لا أعرف لم شعرت وافترضتُ إنكِ قد حكيتِ له عني؟! لا أعرف لم توقعت منكِ هذا؟! لا لثقتي بقيمتي الكبيرة عندكِ بل لأنني أعرف إنكِ لستِ ممن يمزقون الصفحات تاركين أساس الأوراق الممزقة بينها! أنت لا تتركين بقايا خلفكِ! مثيلاتك يطوين الصفحة، وإن طوينها تركن إشارة النهاية عليها وتجاوزن الأمر بلا دراما ولا خوف ولا ندم ولا بكائيات!

لستِ امرأة جريئة ولا مُجازفة، لكنكِ واضحة ومباشرة كرصاصةِ رحمة! لم تخجلي يوماً من علاقتنا، كُنتِ تتباهين بها وتعتدين فيها رغم خجلك الشديد. كُل من كان يعرفك كان يعرف أننا معاً حينما كنا معاً، لذا افترضت وما زلت أفترض إنكِ قد حدثتهِ عني.

ربا لم تذكري اسمي، ربما لم يهتم هو به ولم يسألكِ عنه، ربما لم تتطرقي للتفاصيل، وربما لم يرغب بمعرفتها! لكنكِ قطع حدثته عني! أعرف إنكِ لن تبتدئي حياتك الجديدة بِسر كهذا، وأعرف إنكِ لن تسمحي لأحد بابتزازكِ بحكايتي معكِ، الحكاية التي لم تَكُن تخجلك بطبيعةِ الحال.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتدرين؟!

أراقب زوجك من خلال وسائل التواصل. لطيف لدرجةٍ من الصعب ألا يلحظها أحد! وسيم، مُنفتح، مُثقف متواضع، مُهذب، وأقرب ما يكون إلى الكمال الذي تنشدينه.

يشبهك في ردوده وفي اهتماماته وفي نظرته للكثيرِ من المواقف والأشياء. يتحدث عن العائلة بحب وعن الزواج بفخر. لا يلتوي ولا يلمز ولا يتعدى الحدود ولا يتجاوزها حتى مع من يعتدون عليها!

يبدو أنموذجاً وصورة للزوج المثالي الذي لطالما كُنتِ تتمنين الاقتران به، والذي لطالما حاولتِ دفعي لأن أتقمصها ولأن أكونها أو حتى لأن أدعيها.

أتساءل: هل يدعي كُل هذا لأجلكِ؟ أم كُنت محظوظة في الوقوع برجُلٍ يشبه الصورة الحلم التي لطالما حلمتِ بها؟!

أمن المعقول ومن المُنصف أن يكون قد حصل عليكِ بالادعاء وخسرتكِ أنا بالبينة؟!

هل كُنت سأدعي من أجلكِ لو عاد بي الزمن للوراء؟! لكنني أحببتك لأنك أحببتني بعيوبي وأخطائي كلها، فكيف أتنصل مما قبلتني به ومما أحببتهِ فيَّ؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم تتوقف حياتي بسببك. مضت حياتي ومضيتُ فيها. عملت وتعلمت. سافرت إلى أماكن كثيرة، دخلت في الكثير من العلاقات، وقضيتُ أوقاتاً مُمتعة وسعيدة، لكنني دائماً ما كُنت بانتظار العُمر الذي سيجمعنا في آخرِ الدرب وبنهاية المطاف. دائماً ما كُنت أضع رأسي في نهاية اليوم على وسادتي فأشعر بالوحدة، وبأن عالمي خاو وكتيب من دونكِ. دائماً ما كُنت أشعر في نهايةِ كُل يوم بذلك الفراغ الذي خلفه غيابك ولم يقدر أحد على ملئه طوال تلك السنوات.

لو تعرفين كم خلفتِ وتركتِ بداخلي من مشاعر؟! لو تعرفين كم كانت وما زالت ذكراك حنونة ورقيقة وعذبة وطيبة؟! وكم أحن وأشتاق لكل لحظة عشتُ معك فيها وشاركتُكِ إياها!

لكم بودي أن ألتقيكِ، لأن أحظى بتلك اللحظة مُجدداً اللحظة التي يغمرني حضوركِ فيها بالسكينة، ولأن ابتسم تلك الابتسامة الكبيرة السعيدة، الحقيقية، النابعة من أعمق نقطة في مشاعري، والتي لم أبتسمها إلا بوجودكِ ولكِ ومعكِ وبسببكِ!

أنتِ المرأة الوحيدة التي لم تجمعني بها علاقة شهوة، ولم أنظر لها نظرة رجُل لامرأة تعجبه ويُحبها. أنت المرأة الوحيدة التي لطالما كانت فوق الشهوات، المرأة التي لم أكن أشتهيها بقدرِ ما كُنت أطمئن وأرتاح بوجودها. المرأة الوحيدة التي كانت تجعل روحي تهدأ وتستكين بحضورها، ولأن أُصبح أكثر هدوءا وسلاماً وحياة وإنسانية معها.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لكم أحتاج لأن أحتضنكِ وأبكي! أبكي كُل البعد وكل سنوات الغياب، وكل الخيبة والعتب والأسف الذي يعتمل في صدري ويخنقني في غيابك!

صدقيني! أنا قادر وراغب بمُسامحتكِ على زواجكِ! أنا مُضطر لهذا الغفران! أنا مُحتاج لهذا التخطي وراغب بهذا التجاوز! وليس بوسعي ولا بإمكاني إلا انتظار أن تتشجعي وتتجرئي وتُقدمي وتَتَقدمي!

أنا أسف جداً على كُل هذه الأماني السوداء والأحلام الحالكة! أسِف على كوني مُتمسكاً بأملِ أن يموت زوجك أو ينهار زواجك! أسِف على كوني أنانياً في أي شيء يتعلق بكِ أو يخصك! أسف على كُل الأفكار الأنانية وكل المشاعر الطفولية تجاهك!

أنا أسف إن كُنت قد شعرتِ بكل هذا حينما تزوجت من ياسمين! أسف على كُل لحظات الشك وعلى كُل مواقف الخذلان والخيبة، وعلى كُل الألم الذي لم تستحقي المرور به، وكل الأحداث الصادمة التي لم يَكُن لها أية مبررات منطقية حتى بالنسبةِ لي!

عندما أنظر لأخطاء الماضي وإلى هفواته وكبواته، أغض الطرف وأشيح عنها. تدهشني تلك التصرفات وتخجلني تفاهة الأسباب وسخافة المبررات، وكأن شخصاً آخر غيري هو من ارتكبها ومن قام بها! لم أستفد منها أي شيء ولم أبرهن من خلالها على شيء ولا أعرف كيف

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

قدرت ولم فعلت بكِ هذا! حقاً أنا لا أعرف لم فرطت بكِ ولم توانيت عن الاستمرارِ معكِ والحفاظ عليكِ، رُغم إنكِ لطالما كُنت بالنسبة لي «كل الأشياء».

لا أعرف لم عوَّلت عليكِ وعلى قدرتكِ على احتواءِ علاقتنا والمُحافظة على صلابتها، وعلى إصلاح كُل عُطب وتعويض كُل خسارة!

كيف وثقت بحبكِ لي إلى هذا الحد؟! وكيف قدرتِ على أن تنتقمي مني وأن تتجاوزينني بهذه البساطة؟!

إن كُنت لا أستحق العودة برأيك، فكيف لا أستحق الوداع ولا التأبين؟!

أذكُر كم كُنت معطاءة وكم كُنت غفورة وبيضاء، صافية ونقية!

لا أعرف كيف تنصلت من كُل هذا؟! كيف تغيرتِ! كيف أدرتِ ظهرك لي وحزمتِ طهر قلبك وعُذرية نواياك وأغلقتِ خلفكِ كُل الأبواب بذلك الحزم وتلك الصلابة؟!

أذكر كيف غمرني الدمع تلك الليلة التي شاهدتُ بها وحدي فيلم Before Midnight. تذكرت فيها الليلتين التي شاهدتُ معكِ فيها فيلمي Before Sunrise و Before Sunset..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أذكر كيف أصبحتِ بعدها مأخوذة بالصدف وفينا والقطارات! كُنت متعلقة بحكاية الحُب تلك..

لو تدرين كم أتشبث بتلك الحكاية البعيدة! أعود لأشاهد الفيلمين في كُل مرة ينتابني الشك حول مدى منطقية عودتك وواقعية الأمل حياله. أشاهده فأذكر حواراتنا ونقاشاتنا الطويلة حول الفلمين. كيف كنا نختلف حول فكرة توأم الروح وسرمدية الحُب وخلوده، وكيف كُنتِ تؤمنين بشدة بألا قدرة للإنسان على تجاوز توأم روحه بعدما يلتقيه!

دائماً ما كُنت مؤمنة بعذرية الحُب ومتعصبة لتقديس خلوده. كُنتِ توأم روحكِ، وكُنتِ توأمي، فكيف تجاوزتِ حدودي وتخطيتِ ذكرياتي؟! كيف انفصلت عن توأمتنا؟! كيف عبرتِ الخلود لمساحات التلاشي؟! كيف قدرتِ على أن تحرقي حكايتنا وأن تنثري رمادها في محيط النسيان بقسوة وبرود وبلادة مشاعر؟!

تعبرين في ذاكرتي كفيلم سينمائي قديم وبطيء. أغلق عيني بقوة مُتشبثاً بملامحكِ كيلا تسقطي من ذاكرتي وكيلا أفقد تفاصيل الذكريات التي باتت بعيدة رغماً عني.

أذكر كيف كُنتِ تبتسمين. دائماً ما كُنت مُبتسمة، ابتسامة كبيرة تظهر بها جميع أسنانك، ترفعين حاجبكَ الأيسر دائماً حينما تتحدين أو تشكين

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أو تُغضين. تنكشين بأظفاركِ شفتكِ السفلى حينما تفكرين أو تتوجسين وعندما تقلقين.

يُخيفني أنني بدأت أفقد بعض التفاصيل. يخيفني أن بعض الذكريات بدأت تشيح عن ذاكرتي مُبتعدة لتتساقط منها.

أخاف أن أفقد حكايتنا كلما تقدمتِ بالعُمر وكلا طال الغياب. أخاف أن ينحسر وجودكِ مثلما طالني ابتعادك.

كُنت سأتزوجكِ يوماً. نويت هذا قطعاً، وقررت هذا دائماً، وتراجعت عنه نه كثيراً أيضاً، لكنني كُنت أعرف أنني في نهاية المطاف سأكون زوجك

وستكونين زوجتي، حتى بعدما فوتُّ فرصتي الجادة الوحيدة معك، وبعدما شوهت صورتي في أعينِ والديكِ، كُنت أعرف أنني بطريقة ما سأقدر على أن ألملم أطراف الحكاية، أُلصقها وأُصلحها وأكمل فيها. كُنت قادرة على أن تخرجيني من هذا المأزق كعادتك لكنني سوّفت كثيراً وأجّلتُ طويلاً. خشيتُ وخجلت من أن أواجهكِ وأن أواجههم، فتسربتِ مني مثلما تسربت العائلة مني بسبب التسويف والتأجيل وتأخير المواجهة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أعرف أنني لن أعود كما كنت، وبأنه من المُستحيل أن تكوني كما كنتِ. عُمر مضى بدونِ أن نتشاركه أو نتواصل فيه، فكيف نعود كما كُنا؟! وكيف من المفترض أن نكون في زمننا الجديد وحياتنا القادمة؟!

لا أعرف إن كُنت مُتمسكاً بكِ لأنني ما زلت أُحبكِ، أو لأن أحداً لم يحبني كما أحببتني أنتِ!

لكم أحببتُ حُبكِ ذاك! كان كافياً لأُحبكِ، كان لكِ حُب مُختلف، لا كيد فيه ولا غواية، حُب يشبه الغيوم ورقة تشبه السحائب.

لطالما آمنت بما تقوله الحكمة القديمة، «أنا لا أخسر أبداً، فإمّا أن أربح أو أن أتعلم!».. كُنت دائماً ما أتخطى الخسائر وأعاملها كدروس جدية أتعلم منها، بدونِ أن تُحدث بي شيئاً أو أن تُخلف بي شيء، لكن رحيلكِ لم يَكُن درساً، رحيلك كان أعظم وأقسى وأمر وأبشع خسارة! من المُستحيل أن أفهم منه شيئاً أو أن أتعلم منه أي شيئاً.

أرفض خسارتكِ، وكل ما يمكن أن تحمله من معانٍ ومن دروس ومن حِكم! أنا لا أقبل خسارتكِ، فكيف من المفترضِ أن أتعلم منها؟!

أُمشّط شوارع هذه المدينة التي لم أعُد أعرفها، محاولاً تقديم الود وتجديد التعارف.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

بتُ أشعر في زياراتي الأخيرة لها وكأنها تلهث راكضة نحو المستقبل محاولة تعويض الزمن الذي مضى عليها بلا حراك.

كُنت أشعر في كُل مرة أجيء فيها إلى الرياض وكأنها عالقة في الزمن، أنقطعُ عنها لعامين أو ثلاثة وأعود فأجدها ما كانت، بنفس الملامح وذات الألوان وكأنني لم أُغادرها، لكنها لم تَعُد المدينة الشاحبة التي أعرفها. أصبحت تتشكل وتتغير في كُل زيارة، تصغر عُمراً، ترتفع مكانة، تزداد أناقة، ضجيجاً، حراكاً، وحياة، برغم عودتي لها في ظرف صعب وفي وقتٍ لا يبدو فيه العالم طبيعياً!

أتأمل على جنباتها وجوه الناس خلف الكمامات وهيئاتهم باختلافاتها. أعود بذاكرتي إلى ما قبل عشرين عاماً، حينما كانت وجوه الناس تتشابه، ملابسهم وأفكارهم وأحلامهم وقناعاتهم كلها تبدو مُتناسخة.

كان كُل مُختلف عاصياً وشاذًّا عن القاعدة، يُقصيه عنهم المجتمع ويرفضه الناس.

وقد كُنت موسوماً في الماضي بالاختلاف مع سبق الإصرار وسوء النوايا. لم ينبذني المُجتمع بصراحة لمكانة عائلتي ولصيتها، لكنني كُنت أتواجد بينهم بتوجس منهم. وعلى مضض مني، لم أقدر على كبح اختلافي عنهم ولم يقدروا هم على قبوله ولا على التغاضي عنه.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

اليوم أنا أُشبه الكثيرين، أو فلنقل بأن الكثيرين باتوا يشبهونني. اليوم لستُ مضطراً لتطويع أفكاري ولا لانتحالِ فكر لا يشبه فكري فقط لأندمج بينهم وأتعايش معهم!

اليوم يشبهني الكثيرون ويختلف عني الكثيرون. لا أستغربهم ولا يستغربونني. نختلف ونتشابه ككل البشر في معظم أصقاع الأرض بدونِ أن نكره بعضنا أو أن نستحقر بعضاً.

يُدهشني كم كان اختلافكِ مقبولاً في السابق، في الوقت والزمن الذي لم يَكُن يقبل فيه أي مُختلف. كُنتِ مقبولة حتى لدى أكثر شرائح البشر تحفظاً وانغلاقاً ورفضاً للاختلاف.

كُنتِ مُختلفة بنعومة، متفردة برقة، لم تتصادمي مع أحد بسبب اختلافكِ، ولم يرفض أحد اختلافك حينذاك.

كُنتِ تجيدين التفرد مثلها كُنتِ تجيدين التشابه. تجيئين كنسمة صيف، وتُغادرين كغيمة عابرة. يفرحهم مجيئكِ ويضايقهم رحيلك، بدونِ أن يزعج أحداً اختلافك أو أن يلاحظه أحد.

أُفكر دائماً في تلك القوى التي لطالما امتلكتِها! في قواكِ الرقيقة الناعمة، في قدرتك على التأثير والتغيير ببساطه بدونِ أن تبذلي أي جهد، بلا مواجهات ولا مشاحنات ولا نزاعات ولا صدامات.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف كيف تتسربين بين الناس بسلاسة، وكيف تنسلين منهم بعذوبة؟! كيف تنتمين إليهم رغم اختلافكِ عنهم، وكيف يَعُدونكِ منهم رغم رفضهم لأي مُتغير أو مِختلف عنهم؟!

لطالما غبطتُكِ على هذا! كُنت أغار من قدرتكِ هذه أحياناً! أن أواجه بكل ذلك الرفض وتواجهين بكل أشكال القبول! كُنت أشعر أحياناً بالرغبة في أن تُقصي مثلي! بألا يكون لكِ ملجأ سواي، ولا انتهاء لغيري! لأن أكون كان يغضبني وجهتك، عائلتك، قبليتك ووطنك وانتهاءك!

لكنكِ كُنت ضاربة في أرض وطنك، تمتدين من جذورها وتتفرعين من خلالها. لم يَكُن ليؤثر أحد على ولاءك ولم يَكُن لينسيكِ أحد انتهاءك!

من الصادم كيف تعلمت امرأة عظيمة الوفاء وشديدة التعلق مثلكِ مهارة التخلي!

أشعر أحياناً وكأن جزءاً كبيراً من ألمي هو في عدم استعدادي لتخليكِ عني. ربما لو كُنت أتوقع منكِ هذا لتجاوزت الأمر، لتركتُكِ خلفي بلا ندم ولا التفاتة!

أذكر ذلك النهار. كان مُمطراً، بارداً وحالماً .. كُنا نجلس في تلك الشرفة الحميمة في بيت روبرت وباتي، أكتب بحثي على حاسبي المحمول،

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

وتضطجعين أنتِ على ذلك المقعد الخشبي القديم الصغير بمرتبته الوردية المُشجرة بأشجار خضراء صغيرة. كُنتِ مضطجعة في عرض المقعد الضيق، تضعين رأسكِ على مسند المقعد وتتدلى أرجلك من الجهة الأُخرى. كُنتِ تعبثين بشعركِ كعادتك، تلفين خصلات شعركِ المُجعدة بأصابعكِ، وتُأرجحين رجُليكِ كطفلة، سارحة بعيداً خارج نطاق الزمن وحدود العالم.

كُنت أكتب بحثي على أنغام مقطوعة Mariage d'Amour بعزف ريتشارد كالدرمان. سألتُكِ: هل تعرفين هذه المقطوعة؟

أجبتِ بدونِ أن تلتفتي: Mariage d'Amour !

- أتعرفين ما الذي تعنيه بالعربية؟

أجبتِ: الزواج عن حُب!

صمتِّ وصَمتُّ. كُنت أتأملكِ بدونِ أن تنظري إليَّ. لتفتُ إليَّ فجأة ببطء. ابتسمتِ ابتسامة ناعمة خجولة، وابتسمتُ لك ابتسامة كبيرة، كبيرة جداً! لم أكن أحتاج للكلمات لأعبر لك عن شيء! لم أكن مضطراً . معك للشرح ولا للتبرير ولا المُباشرة! لم أخشى يوماً أن تُسيئي فهمي، ولا لأن تتيهي عن المعنى! كان كافياً أن أمنحكِ خيط الحكاية لتنسجي تفاصيلها بداخلك ولتكتمل عندكِ كُل المعاني الناقصة.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتأمل في شكل علاقتنا التي كانت. كانت حميمة كاملة. لم يَكُن ينقصها شيء. كُل ما جرى فيها من شد وجذب كان لأنني كُنت خائفاً من الكمال، وكُنت مُعتاداً على أن أتخلى أو أن يُتخلى عني! كانت هذه دائها صوة الحُب في ذهني، إما أن يُتخلى عني فيها أو أن أتخلى أنا فيها!

كُنت كاملة لدرجة مُخيفة، وكان حُبكِ صادقاً وعفوياً لدرجة تثير القلق. كُنت مُعتاداً على المطاردة، وكُنت بسيطة وبعيدة ومُبتدئة في تلك اللعبة.

أتعرفين لمَ لم أتخلَّ طوال تلك السنوات عن السكن مع باقي وروبرت؟ أتظنين أنه كان من الطبيعي أن يتشارك رجُل مثلي في مُنتصف ثلاثينياته حينذاك وبشخصيتي الجانحة والجامحة تلك، السكن مع عجوزين لا يربطه بها أي شيء؟!

أتساءل دوماً لمَ لم تسأليني يوماً هذا السؤال؟! كيف لم يخطر ببالك هذا التساؤل؟! كيف لم تفهمي يوماً أنني قايضتُ حريتي وراحتي في السكن مُقابل أن تقدري على زيارتي فيه؟! كُنت أعرف إنكِ لن تجرئي يوماً على أن تزوريني في مكان لا يتواجد فيه غيري. كُنت ألمس خوفك في كُل مرةٍ تزورينني فيها عندما تنادينها لتُسلمي عليها وأنا مدرك بأنك تحاولين التأكد من وجودهما في البيت.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ أيضاً لم تكوني بحاجةٍ للكلمات حتى أفهم ما تفكرين به وما تشعرين فيه. أنت بالذات لم تكوني بحاجة للتعبير ولا للتفسير. كُنت أوضح من ألا تلاحظي، وأبسط من ألا تفهمي، وأطيب من أن يُساء الظن بك.

كُنت أغيظكِ أحياناً عندما تسألينني عنها، فأخبركِ أنها خارج البيت. كانت تنطلي عليكِ الخدعة في البداية، لكنك فهمتِ أنني أحاول إغاظتك فلم تعودي تصدقينني.

أذكر أنها كانا خارج البيت في إحدى الليالي على غيرِ عادتها، جئتني وطبخنا طعام العشاء معاً. سألتني وأنتِ تقلبين المعكرونة مع كريمة الطبخ البيضاء: أين روبرت وباتي؟

أجبتُكِ ببساطة وأنا أُقطع السبانخ: ليسا هنا.

ابتسمتِ بسخرية: ظريف جداً!

ضحكت ولم أُعلق. بعدما انتهينا من تناول طعام العشاء على الشرفة، وإذا بباتي وروبرت ينزلان من السيارة مُتأنقين. كان وجهكِ مُمتقعاً وأنتِ تخبرين باتي كم تبدو جميلة هذه الليلة.

سألتني عندما دخلا لداخل البيت: لمَ لم تخبرني أنها خارج البيت؟؟

قلت لكِ وأنا أهز كتفي ببساطة: أخبرتُك!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- لكنك تقول لي دائماً أنها خارج المنزل وهما فيه!

- لم أكذب! قُلت لك أنها في الخارج. أنتِ التي لم تُصدقيني!

- ولمَ لم تُلح في الحقيقة ؟!

ولمَ عليَّ أن ألُح؟ الكذب لحوح. الحقيقة لا يُلح فيها.

- ظريف وفيلسوف أيضاً!

- وما المُشكلة في لو كُنا لوحدنا في المنزل معاً؟

- لا توجد مُشكلة، لكنني أُحب أن تكون صادقاً معي في إن كانا موجودين أو لا.. فقط! ببساطة!

أشرتُ إليكِ بإبهامي متحدياً: أنتِ تخافين مني!

- لا طبعاً!

كررتُ مؤكداً: أنتِ تخافين مني!

ابتسمتِ: أنت لا تقدر على أن تؤذيني، فلمَ أخاف منك؟!

- ولم لا أقدر على إيذائك؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ـ لأنك تحبني!

عُدت بظهري إلى الخلف، مُتكئاً على ظهر مقعدي، قُلت وأنا أتأملكِ: حقاً؟!

أذكر كيف ذبلت عينيكِ بخوف، وكيف ظهر ذلك العِرق الأخضر في جبهتكِ!

احمرت أُذناك وزاد تنفسك. أخذت أتأمل ذلك العِرق الذي يظهر في جبينكِ بشكل طولي حينما تغضبين وتتوترين. كان يظهر واضحاً كخط أخضر مُمتلئ في منتصفِ جبينك، من منابتِ شعرك وحتى بين حاجبيكِ، مثلي تماماً حينما أغضب..

كُنت أتأمل عنقكِ الطويل والنحيل بعضلاته المشدودة بتوتر وأنتِ تبتلعين ريقكِ محاولة استجماع شجاعتك: حقاً!

ملتُ إلى الأمام باتجاهك وقلت لكِ ببطء مشيراً إليكِ بسبابتي: أنتِ..... تخافين .... مني!

أذكر كيف طفرت دمعة ساخنة من عينكِ وكيف سالت على خدكِ فجأة، ضحكت بقوة، سحبت منديلاً ورميته أمامكِ: لم تبكين يا مجنونة؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مسكتِ المنديل وقُلتِ بصوت مخنوق محاولة كتم عبراتكِ: لا تفعل ذلك معي مجدداً!

سألتُكِ وأنا أضحك: ما الذي فعلته؟!

أجبتني وأنتِ تُشيرين إليَّ بسبابتكِ هذه المرة: لا تفعل ذلك معي مُجدداً!

- أخبريني ماذا فعلت؟

قُلتِ ببطء وأنتِ تشيرين بسبابتكِ مجدداً: لا ... تفعل... ذلك... معي... مُجدداً...

صمتِّ وصمتُّ ومن ثم انفجرنا ضاحكين..

قُلتَ وأنتِ تضحكين ماسحة دموعكِ بالمنديل: أكرهُكَ! أكرهُكَ فعلاً!

مسكتِ كفكِ المبللة بالدمع. قُلت لكِ وأنا أقبل أطراف أصابعك: وأنا أكرهُكِ جداً! أكرهُكِ جداً جداً!

أُحب تلك الليلة الذكرى كثيراً! أُغمض عيني بقوة مُسترجعاً تفاصيلها الصغيرة. رائحة الفانيلا في عطرك، قميصكِ الكحلي الحريري، سُمرتكِ الدافئة، شعرك البني المُتمرد المُجعد الطويل، ملمس يدك وأنا

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أقبل أطراف أصابعكِ بينها تسحبينها من بين أصابعي بخجلٍ ناعم، وحرف الـ I في سلسلتك الذهبية مُستكيناً على نحرك..

أذكر أول مرة رأيتكِ ترتدينه فيها. كنا متشاجرين. مددتُ يدي لأمسكه فضربتِ يدي مُبعدة إياها. قلت لكِ وأنا أُشير إليه: تضعين حرفي!

- ليس حرفك!

- حرف من إذا؟

- حرفي!

- اسمكِ «أجمانة»؟!

- صحيح!

- أجمانةُ أنتِ؟! اسمُكِ سؤال؟!

- لا تعجب!

أنتِ وحدكِ من كان يضحكني حتى تؤلمني خاصرتي وحتى تتفتح أوردة قلبي وشرايينه..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُفكر دائماً: هل تعثرتُ بك أم وقعتُ فيكِ؟! كيف التقيتُكِ صدفة في مقهى صغير لطالما ارتدته بدونِ أن ألاحظكِ أو أن ألاحظ فيه أحد؟!كيف سألتُكِ سؤالاً واحداً فأصبحتِ في حياتي كُل الأجوبة؟!

ليتني لم أسألك ذلك السؤال! ليتني تجاهلتُكِ! ليتني لم ألحظكِ أو لم أذهب للمقهى ذلك اليوم!

لم يَكُن من خططي يومها الذهاب لذلك المقهى. كُنت متعثراً في كتابة مقالة. غادرت مكتبة الجامعة متوجها للبيت. قررتُ أن أقف وأن أجرب حظي في الكتابة بالمقهى حينما مررتُ به. قررتُ الوقوف في لحظة، ورأيتكِ في أُخرى، وظللتُ مُعلقاً فيكِ لأربعة عشر عاماً! ثلثها حضور وثلثيها غياب، بسبب لحظتين وصدفة!

ارتكبتُ في حياتي الكثير من الخطايا، لكنني لا أعرف حقاً ما الخطيئة العظمى التي ارتكبتها لأُعاقب بكِ طوال هذا العُمر ؟! أي كفارة هذه التي يتوجب عليَّ أن أدفعها لأتخلص من هذا الذنب، ولتزول عني هذه العقوبة؟! كيف تتلاشي من حياتي وكيف أنتهي منكِ؟!

لا أعرف كيف أُريدكِ أن تتلاشي من حياتي وأنا مُتمسك بكل ذكرى! كيف سأنتهي منك وأنا رافض لأن أُفلتكِ خلفي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنا غير مُستعد للانتهاء منكِ. ولأكون صادقاً ودقيقاً، أنا غير مُستعد أيضاً للبداية معكِ من جديد! أنا خائف من أن تتغيري علي، وغاضب من خذلانك لي. مشتاق وموجوع، وفاقد للحيلة وشبه بائس، ولا أعرف ماذا عساي أن أفعل؟!

أبتسم عندما أرى إحدى الفنانات العربيات على التلفاز. أذكر حماسكِ وأنتِ تخبرينني كم تدينين لها أنتِ وصاحبات الشعر المجعد! كم تعرضت للتنمر في طفولتك بسبب اختلاف نوعية شعرك عما كان سائداً، وكيف أنها أنقذتكن جميعاً عندما استطاعت أن تغير في مقاييس الجمال ونمطيته لمُجرد أنها مُجعدة الشعر!

لكنني أعرف إنكِ في الحقيقة لم تحتاجي لأن ينقذكِ أحد. لطالما كُنتِ مُعتدة بنفسك، مُعتزة بنوعية شعركِ وبملامحكِ وتفاصيل جسدكِ بدونِ مُبالغة ولا ابتذال. لم تُقدمي يوماً نفسكِ كامرأة جميلة، لكنكِ لم ولا تتجاهلين جمالكِ الخاص. دائماً ما كُنتِ تفخرين بدونِ أن تتفاخري بأنكِ لا تُشبهين الأُخريات وبأنكِ غير مُستنسخة من أحد.

كُنت هادئة وعذبة، كمقطوعة موسيقية رقيقة، وكُنت صاخباً وجانحاً كموجةِ تسونامي عاتية.

لا أعرف كيف كنا نلتقي وعلى ماذا كنا نتفق، لكننا كنا منسجمين رغم الاختلاف، مُتحدين رغم التحدي، متآلفين رغم التنافر .

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كانت علاقتنا غريبة على من حولنا. كُنت أشعر وأعرف أنهم يظنون إنكِ كثيرة عليّ! إنكِ أفضل من أن تكوني معي! يزعجونني بذلك، بتلميحٍ أحياناً وتصريحٍ أحياناً وتحذيرٍ في بعض الأحيان! ورغم أنني لطالما تجاهلت كُل تلك التلميحات والتصريحات، إلا أنني أنا أيضاً كُنت أشعر بالدهشة عما كانت أرواحنا عليه! كُنت أرواحنا متآلفة لدرجةٍ يصعب فهمها حتى علينا أنا وأنتِ! كنا متآلفين مها كانت بيننا من خلافات واختلافات.

لطالما كُنت خائفاً وقلِقاً من أن تُسيطري عليَّ رغم أنني دائماً ما كُنت المسيطر في علاقتنا. كُنت أستمتع في كُل مرة أُبعدكِ فيها وأعيدك إلي. كُنت أستمتع بولائك ووفائك وإخلاصكِ، وأنا أرى امرأة مثلكِ وبرغم أنها قادرة على أن تسلك ألف درب ودرب إلا أن دروبها لا تنتهي دائماً إلا إليّ!

هل تعبتِ من تلك اللعبة يا جمانة؟! هل مللتِ؟! أم سئمتِ مني وفقدتِ الإيمان بي؟!

أعرف إنكِ تعبتِ مني، مللتِ من الابتعاد المفاجئ والحضور المفاجئ. أعرف أن إيمانكِ بحبنا قد تزعزع وتلحلح وتزحزح عشرات المرات، لكنني وعدتكِ أن أكون في نهاية الأمر معكَ. فلمَ وكيف كفرتِ بي؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

هل أعد لك اللاتي جئن قبلكِ؟! أم أحكي لك عن اللاتي جئن بعدكِ؟! عمن جئن وذهبن بدونِ أن تخلف واحدة منهن بي أي شيء؟!

كل اللاتي مررن بحياتي قبلك وبعدكِ وأثناء ما كُنت معي، لم يخلفن في عُمري لحظة فراغ صغيرة، فكيف استعمرتِني وحدك وخلفتِ بي كُل هذا العُمر الفارغ الخاوي؟! كيف تملكتني أنتِ الشابة البريئة بلا دهاء ولا كيد ولا خبرات؟!

كيف قدرتِ على أن تنتقمي مني بذلك الجبروت وتلك القسوة؟!

أوجعتكِ في الماضي، فشتَّتِ حاضري وبعثرتِ مستقبلي وجعلتِ حياتي من بعدكِ ناقصة!

أتأمل أمي وأبي وحنانها على بعضها واتكاءهما على بعض، فيدهشني ما غيره فيها الزمن. أرقب أمي وهي تناول أبي حبوب الدواء التي تحفظ أوقاتها أكثر مما يفعل هو. أراها تتشاجر معه على الطعام وتجبره عليه كطفل صغير يوافق على مضض على تناوله طاعة لأوامر أمه. أرقب أبي وهو يمد يديه إلى قدميها ويمسدهما كلما جلست ومدتها بجواره، فتعود بي الذاكرة للسنوات الأربعين الماضية ونزاعاتهما وشجاراتهما التي لم يقدرا على أن يكبحاها حتى في زياراتي القصيرة الخاطفة لها طوال سنين ابتعادي واغترابي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يدهشني كثيراً كيف قارب بينها الزمن وكيف آلفت بينها العشرة أو ربما الحاجة!

أُفكر كيف كانت لتكون كهولتنا، وكيف كانت لتُصبح شيخوختنا لو قضينا ما تبقى لنا من العُمر معاً؟!

أتخيل بياض الشيب في لفائف شعرك الطويلة، وبتجاعيد صغيرة ناعمة تُحيط بعينيكِ وأعلى جبينكِ، وبعجوزٍ لا يضاهيها في لطفها أحد، تستند على ذراعي، تضع رأسها على كتفي مُطمئنة، وتستسلم لكل الأقدار التي قد نخوضها ما دمنا معاً.

أمن المثير للسخرية أن أُصبح رومانسياً وحالماً في أربعيناتي فجأة؟! أهي بوادر الكهولة التي تقترب إليَّ بسرعة كبيرة غير آبهة بعنفوان روحي وفورة شبابي؟!

أذكر تلك التفاصيل الصغيرة المُفرطة الرومانسية التي كُنتِ تعتنين وتُعنين بها، ذلك الجانب الوردي الحالم في شخصيتكِ وفي سلوكك، وأتساءل هل من المُمكن أن يغير بكِ الزمن ذلك الطبع وتلك الخصلة؟!

هل من المُمكن أن تكوني قد أصبحتِ أكثر عملية وأكثر واقعية مما كُنت عليه؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

هل تبادلنا الأدوار فأصبحتُ رومانسياً كما كُنتِ تتمنين؟! وأصبحتِ عملية مثلما كُنت أطلب منكِ أن تكوني؟! هل غادرتكِ روح الفراشة التي كانت تسكُنكِ فبتِّ امرأة أُخرى بروح أُخرى؟!

أتعلمين؟! أظن إنكِ تعلمين! صادفتُ صديقتكِ هيفاء عدة مرات من بعد عودتك وانتقالك للولايات المُتحدة. لم يَكُن هناك الكثير مما قد يُقال ويُحكى بيننا!

لطالما كانت مصادفة هيفاء مُزعجة بالنسبةِ لي. كانت تزعجني بوجودكِ فما بالكِ بها باتت تفعله مصادفتها في غيابك؟!

تخلّف رؤيتها بداخلي الكثير من المشاعر المزعجة، خاصة وأن أول مرة التقيتها فيها كُنت بمعية منار من بعد رحيلكِ بأشهر. شعرتُ يومها وكأنها قد مسكتني بالجرم المشهود، وكأنها حصلت على الإثبات والدليل الذي سيُدينني عندكِ ويقضي على كُل فرصي لديكِ.

لا أعرف لم توترت وتضايقت كثيراً حينما قابلتها؟! ربما خشيت أن تخبركِ أنها رأتني مع منار فتنهي كُل الآمال في عودتكِ، وربما لأن رؤيتها أعادتك إلى ذاكرتي أثناء ما كُنت أحاول جاهداً أن أطردكِ منها وأن أندمج بعلاقةٍ جديدة محاولاً استبدالكِ بأُخرى!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت متأكداً أن امرأة مثل هيفاء لن تتوانى في أن تُخبرك أنها ضبطتني مع امرأة غيرك، مع إضافة الكثير مما لم يحدث لتُجهز على ما بيننا!

يومها اختنقتُ كثيراً بمشاعري. ظهرت كُل مشاعري المتوارية على السطح بقوة. تمزقت بين ما أرغب به فعلاً وما أحاول أن أرغب به. بين ما أشعر به وما أدعيه! انهارت كُل محاولاتي في الاندماج مع منار التي لم يَكُن ينقصها شيء كامرأة، عدا أنها ليست أنتِ!

لم نتبادل الحديث أنا وهيفاء عندما التقينا، وكأن الخيط الوحيد الذي كان يربط بيننا قد اهترأ وانقطع. نظرتْ إليَّ ونظرتُ إليها مُباشرة وطويلاً بدونِ أن يرمش لي ولها جفن. كانت نظراتها تحمل الكثير من التحدي والاشمئزاز، الاستفزاز والشماتة، ولا أعرف ما الذي قد وصلها من نظرتي إليها، لكنني لم أكن سعيداً برؤيتها أبداً، ولم أحاول ادعاء ذلك حتى في نظراتي لها.

صادفت هيفاء عدة مرات بعدها ولسنوات كثيرة. لم يجمعنا يوماً حديث ولا حتى سلام. لم أسألها عنكِ يوماً، ولم تتطوع هي لتخبرني عنكِ أي شيء. اكتفت بأن تؤلمني بمصادفتها، واكتفيتُ أنا بتحمل وتجرع ألم تلك الصدفة بدونِ أي ردود أفعال!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتساءل: أيعقل أن يكون هذا السبب؟! ألهذا لم تعودي؟! هل حدثتكِ هيفاء عن منار فأجهزتْ على ما تبقى من علاقتنا واستطاعت أن تكتم أنفاسها الأخيرة؟

أكان انقطاعكِ عني وهجرك لي بسبب ما قد نقلته لكِ هيفاء؟! هل استطاعت بعد كُل تلك السنوات وكل تلك المحاولات أن تجتثكِ مني وأن تبعدك عني بدونِ أن تستفسري مني أو تتأكدي؟!

أعرف إنكِ لن تفهمي ذلك أبداً، وأنك لن تقدري على أن تتفهميه، لكنني لا أشعر حقاً أنني قد خنتكِ يوماً، لا أثناء ما كُنت معي ولا بعدما رحلتِ عني. كُل العلاقات العابرة أثناء علاقتنا، وكل العلاقات الطويلة بعدها لم تَكُن علاقات حقيقة ولا تعد خيانة لك. أعرف إنكِ تعدينها خيانات ككل النساء، وأنك تحكمين على ظاهرها الحميم وليس على جوهرها البارد الذي كانت عليه.

ورغم إيماني بهذا وبيقيني من براءتي من هذا الذنب، إلا أنني آسف جداً ونادم جداً على كُل الألم الذي قد تسببت لكِ فيه تلك العلاقات! آسف جدا إن كُنت قد شعرت يوماً ، بسببي بالإساءة أو بالإهانة! كُنت أُدرك جيداً أن روحاً حُرة كروحكِ لا تقبل الالتواء ولا ترضى بالمشاركة، وأنك لطالما أخلصتِ لي ولطالما التزمتِ معي، لكنني لم أقدر على كبح جماح متعتي في أن أراك تستميتين لتتملكيني. كان يشعرني هذا بكم ترغبين بي وكم تُحبيني!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

صدقيني، لو كُنت سألتني عما كُنت عليه مع منار، لاستطعت أن أشرح لك ولتمكُنت من إقناعك ومن استرجاعك، لكنكِ كابرتِ هذه المرة! أخذتكِ العزة على غيرِ العادة. أدرت ظهرك لي ولم تعودي تكترثين بمعَ من أكون ولا بمعَ من سأنتهي!

أعرف أنني المُلام الأكبر وأنني أول من أبتدأ المُكابرة والعناد، لكن لا قدرة لي على ألا ألومكِ وهيفاء! هي التي تسببت، وأنت التي صدقتِ، وأنا الذي خسرتُ ودفعت الثمن وحدي!

أعرف إنكِ لو عرفتِ مناراً لكُنت غرتِ منها كثيراً، لا لأنها أعجبتني فحسب، بل لأنها كانت لتثير إعجابكِ أيضاً!

أنت لا تغارين عادة ممن لا يشعرنكِ بالمُنافسة، لكنها كانت كاملة لدرجة لا شك عندي من أنها كانت لتشعركِ بالتهديد وبالخطر!

جميلة هي منار، لا تُشبه جمالكُ لكنها كانت جميلة! شابة ذكية، مثقفة، ظريفة، وممتلئة بالحياة .. وقد كان هذا مُثيراً وجذاباً بالنسبةِ لي باستثناء أنها ليست أنتِ!

أُعجبتُ بمنارٍ كثيراً! استمتعتُ بعلاقتنا كثيراً واستلطفتها كثيراً! لكنها ليست أنتِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ التي جئتني من حيثُ لا أدري ولا أتوقع، فأفسدتِ مشاعري. احتكرتِها وحبستني بداخل إطارك. لم يَعُد يقنعني غيرك ولم أقدر على أن أحب سواك.

كانت منار مُلفتة للنظر. لم أتجاهلها عمداً في البداية، لكنني كُنت واهناً بعدما طال غيابك، فلم تلفتني أو ربما لم ألحظها.

كُنت أتوقع إنكِ ستعودين بسرعة للوطن من بعد حفل تخرجك، لكنني لم أتوقع أن ترحلي بهذه السرعة وبلا وداع.

كُنت أتوقع وأنتظر اتصالكِ كُل يوم. أقلب رسائلي في كُل وقت بانتظار رسالة منك. كُنت على يقين من إنكِ سترسلين إليَّ بأننا سنتصالح ونلتق، ونخطط للمرحلة التالية من حياتنا، وسنتفق حيال كم ستغيبين ومتى ستعودين وأين ستدرسين وأي أرض ووضع سيجمعنا.

لكنكِ رحلتِ فجأة! حزمتِ حقائبكِ ومشاعركِ وتأبطتِ شهادتكِ وذكرياتكِ، ودستِ على حكايتنا في طريقكِ للعودة بدونِ أن تودعيني أو أن تتحدثي إليّ.

صفعتني بالرحيل! صدمتني وباغتتني وأتعبتني طريقة وداعك! لكنني ظننت إنكِ عائدة. كُنت متيقناً من إنكِ قد حصلت على قبول لاستكمال الماجستير والعودة، وإلا لما غادرتني بهذا الشكل وهذا البرود! كان

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

من المستحيل أن ترحلي هكذا! من غير المعقول أن تتخلي عني بتلك الطريقة وبهذا القدر من البساطة!

مرت أشهر طويلة بعد رحيلك طال فيها انتظارك. كُنت أزداد ضيقاً كلما طالت المُدة. كان الوقت بطيئاً، مملاً وكئيباً. يُشبه وأيام العزاء القصيرة/ الطويلة في الوقتِ نفسه. بدأتُ أفقد صبري وأعصابي ورغبتي في كُل شيء، لكني لم أجرؤ على التواصل معك أو الاتصال بك، حتى رأيت صورة الجامعة التي لطالما حلمتِ بأن تكملي دراستكِ فيها على حسابكِ في تويتر وقد كتبت تحتها « My dream comes true». عرفتُ حينما إنكِ قد رحلتِ فعلا وبأنك أقسى مما كُنت أتوقع أو حتى أتخيل!

صفعتني بتلك التغريدة وتلك الصورة. أعتقد إنكِ أردتِني أن أعرف إنكِ ابتعدتِ فعلا عني هذه المرة، وأنك لن تعودي لرقعتي كما كُنت أظن وأتوقع وأنتظر. أردت أن تقول لي إن دروبنا لن تلتقي مُجدداً، وإنكِ في طريقك لدربٍ جديدٍ وقدرٍ جديد، وربها لحب جديد ورجل آخر!

غضبتُ منكِ كثيراً! غضبت منكِ جداً! كان قد أتعبني غيابك وأنهكني الانتظار! وقد كُنت محتاجاً ليدٍ حانية تنتشلني من ذلك الأسى وتلك الصدمة! كُنت أقابل مناراً أحياناً بعض المناسبات، لكنني كُنت مشغولاً بغيابك لدرجة ألا ألحظها أو أن ألحظ أي أحد!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تشبثتُ بها حالما انتبهتُ إليها. لم يَكُن يهمني من تكون وإلى ماذا يفضي تعارفنا. جُل ما كان يهمني وقتذاك هو أن أتجاوزك وأن أطوي صفحتكِ وأنساك! أن أعود إلى نفسي التي فقدتها بسببك!

كُنت صريحاً مع منار منذ البداية. أخبرتها أنني أُريد أن أُحبها. أنني أحتاج أن أُحبها. أنني قد أُحبها! لكنني لن أتزوجها ولن أتزوج أي امرأة أُخرى. أنني لا أطمح للزواج، وغير قادر على الالتزام! قلت لها مباشرة أنني لستُ من هذا الصنف من الرجال الذي لا شك عندي أنها كانت تبحث عنه كمعظم الفتيات في عُمرها.

قبلت منار المُجازفة. أعتقد أنها كانت واثقة من قُدرتها على التأثير بي، وأنها ظنت أنها قادرة على أن تكسر قواعدي وأن تُغير من قناعاتي بما فيها قناعتي في الارتباط والزواج. ربما فكرت أنني لو أحببتها لتراجعت يوماً عن هذا العزوف.

طالت علاقتي بمنار، أطول بكثيرٍ مما تَوقعتُ وأقصر بكثير مما تَوقَعَتْ! لم تَكُن علاقة طويلة بمقاييسِ العلاقات، لكنها كانت العلاقة الأطول عُمراً من بعدكِ. كان من الغريب أنها استطاعت أن تستمر معي رغم سوء طباعي وحدة مزاجي وتخبط سلوكي حينذاك.

دائماً ما تكون العلاقة التي تلي علاقة هجر علاقة مُعتلّة، ومحاولة بائسة للنجاة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أحياناً كُنت أحدثها عنكِ كثيراً وطوال الوقت. تتفهمني وتغضب مني أحياناً أُخرى، حتى أصبحت تهددني بأن تنهي علاقتها معي وأنها ستتركني لو استمررت بالحديثِ عنكِ أو حتى بذكر اسمكِ!

كُنت أسبقها وأتركها في كُل مرة تحرم ذكركِ عليَّ فيها، وكأنني أقول لها: «إما أن تقبليني أنا وهي وإلا فلن أبقى»!

ربطتنا ثمانية أشهر طويلة ومنهكة. لم أقدر بعدها أن أحتمل أو أن أستمر. كُنت مُختنقاً بك! أعراض انسحابكِ كانت مُستمرة. لم تقدر هي على أن تنتشلني منها ولم أقدر أنا على أن أُنهيها.

قررتُ أن أُبادر بالانفصال هذه المرة! قررت أن أتخلص من كُل التزام أو حتى ما يشبه الالتزام، وأن أختلي مع نفسي. أن أتوحد بها. أن أعرفها من جديد. أُعزيها وأواسي فقدها الكبير. أن أعترف بشرعية حُزني وبأحقيتهِ، وأن أمنحه الفرصة للظهور والتعبير والمضي قُدماً، لأستأصله وأرتاح!

أتدرين أن غيابكِ لم يَكُن كأي غياب؟! كان غيابكِ يشبه الرحيل المُر! بطعم الفقد المحض، ورائحة الموت وملمس الخسارة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم يَكُن لدي من بعدكِ أية رغبات. كُل ما أردته هو أن أتخطاكِ، أن أتجاوزكِ وأنتهي من كُل هذه المأساة! من يصدق إنكِ قد أصبحتِ مأساتي؟!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف لمَاذا مات أبي بعد عودتي؟! لم انتظر وعاش طوال العُمر الطويل الماضي في غيابي؟! ولم أقدم على الرحيل بعدما عُدت وكأنه لا يحتمل أن تجمعنا أرض مشتركة ولا حياة واحدة؟!

لا أفهم كيف يموت البشر بهذه البساطة؟! كيف ينتهون فجأة وبدونِ سابق إنذار؟!

أُفكر دائما فيها لو كان الإنسان لا يموت إلا بعد إشعار صريحٍ ومُبكر! لو لم يَكُن هناك حوادث ولا حرق ولا غرق، ولا سكتات تُصيب القلوب فتسكُت فجأة! فيها لو انعدمت مفاجآت الموت ولو كان لكل إنسان أجل معلوم! نهاية يُدرك أنه يقترب منها ويخطو إليها. كيف كانت لتكون حيواتنا وكيف كنا لنكون مع من نُحبهم؟!

غضبتُ كثيراً حينما مات والدي! غضبتُ لأنها لم تَكُن خططي ولم يبدُ لي أنها كانت من خططه! عُدت لأغلق الجروح القديمة ففتقها وأدماها هو بالرحيل السريع في الوقت غير المُناسب وغير المتوقع!

لم أكن مستعداً لهذا! لم أكن أنتظر مفاجآت الرحيل ولا لأن أدخل في معمعةِ الندم ووجع الخسارة! ليس بهذه السرعة ولا في هذه الظروف وهذا التوقيت!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت أدرك دائها أنني سأندم كثيراً حينما أخسر والدي، لكنني رغم ذلك لم أقدر ولم أجرؤ على أن أصلح علاقتي معه. كُنت أتوقع هذا الندم القادم لا محالة، لكنه جاء مُراً وقاسياً رغم توقعه!

أتدرين؟! ورغم أن والدي لم يؤيد زواجي منكِ في الماضي، وبالرغم من أنه قد قبل به على مضض، متوجساً مني وجاهلا بك، لكنني على يقين أنه كان ليُحبكِ وليفضلكِ كثيراً على الجميع ! كما كُنت أعرف إنكِ كُنت لتحزني عليه رغم كُل شيء! كُنت لتُكرميه بحُزنكِ الصادق عليه حتى وإن لم تَكوني زوجة لابنه.

أعرف إنكِ أحببتِ كُل ما ارتبط بي وكل من تلاقيت معهم برابطِ دم، فكيف بوالديّ؟!

قرأتُ تغريدتكِ تلك الليلة على تويتر. أبنت فيها والدي وترحمتِ عليه بدونِ أن تذكري اسمه أو أن تُشيري إليه.. «اللهم اغفر وارحم الرجل الطيب الذي غادرنا هذه الليلة. اللهم تقبله شهيداً وكُن مع أهله وذويه وارزقهم الصبر والسلوان.»

طفرت دمعة من عيني. كُنت أناضل بصعوبة لأحبسها طوال اليوم!

شكراً لكِ! شكراً لكِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

شكراً لأنكِ رغم بُعدكِ ورغم كُل الظروف التي تحول بيننا ما زلتِ تشعرين بي وتتابعين أحوالي، وما زلتِ تحنين عليّ!

شكراً لأنكِ ربتِّ على رأسي من بعيد، وإن ربتِّ بكلياتٍ بسيطة وعامة ومبنية للمجهول!

شكراً لأنكِ كُنت معي تلك الليلة حتى وإن لم تكوني معي! شكراً لأنكِ لم تدعي هذه الليلة تمر من دون أن تواسيني فيها!

تعرفين أنني احتجتُكِ كثيراً تلك الليلة! لم أحتج لأحد غيرك ولم يَكُن ليفهمني وليشعر بي سواكِ!

أنتِ وحدكِ من كانت ستفهم لم غبت ولم عُدت! ما كلفني الغياب وما ستترتب عليه العودة! أنتِ وحدك من كانت ستعرف قدر الندم، ومن كانت ستُقَدر حجم الخسارة، ومن كانت لتستوعب أسبابي وتقبلها بلا لوم ولا أحكام!

لم أجرؤ على أن أرد على تغريدتك حتى بـ «آمين». اكتفيتُ بأن أُعجبت بها رداً عليها، رغم أنني دائما ما كُنت أتساءل كيف يُعجب الناس بتغريدة عن الموت! سجلتُ إعجابي بتغريدتك وفي قلبي الكثير! ما الذي سيُغيره ما قد أقوله؟! لم يَعُد للقول معنى، فقد رحل الشيخ الطيب الكبير في الوقت الذي عُدت فيه لأصلح أحوالي معه!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الرجل الذي غادرت بسببه والذي عُدت بسببه أيضاً! كان كريماً معي في أيامهِ الأخيرة. تقبل عودتي وغض الطرف عمَّا كانت عليه علاقتنا لأكثر من عقدين ماضيين، وكأنه شعر بدنو وقرب الرحيل فعفا وغفر وسامح ومضى!

حمدت أمي الله كثيراً أنه لم يتوفَّ إلا بعدما رآني مُستقراً في بيته، وبعدما اطمئن بعودتي وبقدرتي على جمع شمل الأسر والمحافظة على وحدتهم وترابطهم ككبيرٍ لهم. حاولت أن تُعزيني بتلك الفكرة وأن تواسي قلبي المفجوع بها، وأن تُلبسني عباءة المسئولية عاجلاً وقسراً كيلا أتردد أو أتراجع.

كُنت مضطراً لتجاوز ذلك الموت بأسرعِ وقت ممكن. مضطراً لاحتضان العائلة، وجمع شملهم وللعبِ دور كبيرهم الذي لم أتخيل أو أتمنى يوماً أن ألعب دوره، أو أن أتحمل مسئولياته والتزاماته.

كُنت أُدرك أنني لم أكُن لائقاً بذلك الدور ولا بتلك المكانة. لم أكن لائقاً ولا مُستحقاً لها ولا حتى راغباً فيها، لكني لم أستطع أن أتنازل عنها في حضوري ووجودي لأخي وليد الذي كان يصغرني بسبعِ سنواتٍ من الزمن، رغم رغبته بها واستحقاقه لها! لم أكن لأطمس وجودي ولا لألغي مكانتي بعدما عُدت، خاصة وأن العودة باتت تبدو أبدية!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

من المثير للسخرية أنني واجهت كُل ما هربت منه، وبعد عشرين عاماً من التهرب والتنصل، وكأنني كُنت أدور راكضاً في نفس الدائرة!

عُدت لمن هربت منهم، وحملت ما غادرت كيلا أحمله!

أُفكر كيف كانت لتكون الأمور لو كُنت حينما معي؟! كم كانت لتكون أكثر سهولة! وكم كُنت لأصبح أكثر استحقاقاً لما كُنت عليه؟!

كُنت لترفعي من مكانتي وكُنت لتسهلي عليَّ واجباتي. كُنت لتجعليني أكثر حكمة وأعلى قدراً وأشد صبراً لمُجردِ إنكِ معي!

لكنكِ لم تكوني بمعيتي! كُنت وحيداً لدرجةِ دفعتني لأن أتخلى عن كُل ما انتظرته وكل ما آمنته به! ولأن أُفكر بالزواجِ مُجدداً!

تُدركين أنه ليس من المقبول مني هُنا أن أمضي ما تبقى لي من عُمر بلا زواج. عندما كُنت مغترباً، كُنت بعيداً عن معظم الضغوط ومرتاحاً من فضولية الأسئلة، لكنني اليوم في المكان الذي لا يفترض أن أكون به عازباً في سني هذا وفي ظروفي هذه. عزوبيتي بهذا العُمر وهذه الظروف كانت تُثير الاستغراب وتُزيد من حولي البلبلة!

أمن المعقول أن أتزوج زواجاً تقليدياً بعد كُل هذه التجارب؟! أمن الممكن أن تنهار محاولاتي في السعي وراء الحُب وأن أفقد المقاومة وأن استسلم أمام ضغوط أمي وأخواتي، فأتزوج من يخترهن لي؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

من المُثير للسخرية حقاً أن تنتهي عزوبيتي بتلك الطريقة وبعد هذا الكم من التجارب! لذا كان من المفترض أن أقع بالحُب بأسرعِ وقت ممكن، وأن أجد المرأة المُناسبة لتحل محلكِ، وتنتهي معها حكايتي معك!

أتعرفين كيف يعيش الرجل المتزوج وهو عالق بحُب أُخرى؟! الأُخرى التي تطل في حياته كُل ما اختلف زوجته، كلما اكتشف عيب، كلا استنقص شيئا أو افتقد شيئا! الأُخرى التي تفوز دائماً بأي مُقارنة، والتي يفكر بها ويحتاجها في كُل مرة يشعر فيها بألم كبير أو فرحة ضخمة!

أعرف إنكِ المرأة التي ستعيش دوماً معي، أكُنت معي أو بعيدة عني! أنت من سأحتاجها في كُل لحظة حاجة، وأنتِ من سأتمنى مشاركتها عند كُل إنجاز! أنت من تمنيت وسأتمنى أن تكون بجواري حينما أمرض وعندما أموت! أنت التي أحتاج لأن أشيخ معها، وأموت على صدرها!

أُفكر دائماً: لم لا يقدر الإنسان على أن يختار من يحب؟! لمَ لم يمنحنا الله هذا الخيار؟! كم كانت لتكون أقدارنا مُختلفة، وكم كانت لتكون حيواتنا أكثر سلاماً وأقل شقاء؟!

لم علينا أن نكابد في الحياة لنثبت أهليتنا وأحقيتنا للعيش فيها؟! ولم أنتِ مشقتي وعنائي وكَبَدي؟! لم أنتِ بالذات؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أذكر أنني قد قُلت لك يوماً إن الله اختاركِ ليعذبني بك!

قُلتِ بثقة: بل اختارني لينجيكِ من خلالي! أنت من اختاره الله لي ليعذبني به!

والحق إنكِ كُنت نجاتي وأنني كُنت عذابك! ولا أعرف ولا أفهم كيف انقلبت الأدوار؟! كيف صرتِ مصدر شقائي وكيف نجيتِ وفلتِّ أنتِ مني؟!

أشعر أنني بدأت أفقد قواي! بدأت تتداعى مقاومتي وبتُّ أشعر بضرورة أن أستسلم! أن أدعكِ ترحلين من أحلامي وأن أطلق على الأمل رصاصة الرحمة الأخيرة، لأبتدئ حياة جديدة لا أعيش فيها على أمل رجوعك ولا على إمكانية عودتك!

يبدو اليوم أن لكل شيء نهاية، حتى أنتِ!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان من الغريب أن تكوني أنت الحكاية السر التي لم أعد أحكيها لأحد بعد الرحيل! لم أتكلم عنكِ مع أحد من بعدِ ما غبتِ باستثناءِ منار، وكأنني أرفض فكرة استحضاركِ طوعاً حتى وإن كُنت حاضرة في حقيقة الأمر، وفي معظم الأوقات وبدونِ عناء الاسترجاع أو جهد الاستحضار.

ربا لم أحكِ عنكِ لأنني شعرت أن أحداً لن يفهم الحكاية. ربما خشيت الملامة، أو ربما خشيت أن تكبري بداخلي كُكرة ثلج كلما تذكرتُكِ. كُنت أحتاج لأن أصغركِ بداخلي، لأن أحجمكِ وأهمشكِ وأتفهكِ وأسخفك، لا أن أوصم بكِ وألا أُذكر إلا بك!

عقدتُ العزم بعدما توفي والدي على أن أدفنكِ معه. كُنت أتخيل وجهكِ وهم ينثرون التراب على جثمانه، لذا بكيت كثيراً أثناء الدفن، بكيتكما! هو الذي لم أستطع أن أعوضه عن غيابي، وأنتِ التي لن تقدر أبداً على أن تعوضني عن غيابها.

لا أعرف لم غضبتُ منك كثيراً بعدما توفي والدي؟! لم كِبرت رقعة العتب بداخلي فلم يَعُد شيء قادراً على أن يرقعها؟!

ربما لأنني كُنت بحاجة لأن ألومَ أحدا! كُنت غاضباً وحانقاً ومحتاجاً لمن ألومه، ولم يَكُن هُناك غيرك ليُلام على ألمي! وربا لأنني كُنت

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يائساً وبائساً فكُل ما عدت لأجله لم يَعُد موجوداً، وكل ما خططت له لم ولن أقدر على أن أحصل عليه أو أن أصله!

أو ربما لأنني شعرتُ بأنك خذلتني من جديد! أنتِ التي لم يَكُن من المفترض أن تكون بعيدة عني وقتها أخسر أبي! دائماً ما كُنت أتخيلكِ معي في تلك الأيام وتلك اللحظة. تسنديني بظهر قوي، تواسينني، وتطبطبين عليَّ وتُعيدين إليَّ توازني حينما أفقده، فكيف قدرت على أن تتركيني في مواجهة الفقد وحدي؟! كيف تجرأتِ على أن تخذليني؟!

يقول دوستويفسكي: «لا شيء يروعني بقدر ألا أكون جديراً بآلامي».

وبقدرِ ما أشعر أنني أستحق أن أُعاقب بهذا الألم، إلا أنني لا أعرف إن كُنت فعلاً جديراً به وقادراً على تحمله! يبدو هذا الألم ضخما وللمرة الأولى علي! دائما ما كُنت أشعر بأنني قادر على احتمال ما لا قدرة لغيري على احتماله، إلا أنني ولأول مرة أشعر بالرغبةِ في التخلص من كُل شيءٍ، والتخلي عن كُل شيء، عنكِ أولا ومن بعدكِ كُل شيء!

أُفكر في لحظات النكوص الغريبة هذه التي أعيشها لأولِ مرة، في هذا القدر الكبير من اليأس ومن الكآبة، بهذا الشعور العاجز وبقلة الحيلة تجاه ما يجري لي في هذه الحياة! أُفكر فيها أنا قادر على استرجاعه أو تخطيه أو حتى البدء به، فتحبطني قلة الخيارات وضآلة الفرص!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تورطتِ بك وأصبحتِ مأزقي! وأمثالي لا يتورطون ولا يعلقون في العادة! أمثالي تعتريهم البلادة تجاه النهايات، يتطلعون إلى ما بعد النهايات بجسارة، لا يخشون خسارة شيء، ولا يخافون من البدء بشيء. يملكون المرونة والقدرة

دائماً على تعويض وتجاوز كُل خسارة وكأنها لم تَكُن!

لكنكِ جئتِ، فعمقتِ الألم وضخمتِ الخسائر، غيرتني بدونِ أن تبذلي جهدا للتغيير، جعلتني أكثر حساسية وأقل شجاعة، وهذا أزعجني وأخافني كثيراً حينما كُنت معكِ!

لم أكن أشعر بأنني بحاجةٍ لأن تُعيدي تشكيل إنسانيتي. كُنت راضيا عن نفسي، قابلاً ببرودي وبلادتي تجاه الآخرين والأماكن. كُنت دائماً ما أشعر بأن الحميمية التي تربطكِ مع الآخرين والرومانسية المفرطة التي تنظرين بها للأماكن والمواقف، سات غير ناضجة، شيرهن على سذاجتكِ العاطفية وانعدام خبرتك في الحياة!

لكنني وجدتني أتطبع بطباعكِ في أحيان كثيرة! وجدتني أكثر لينا تجاه الناس، وأكثر ارتباطاً بالأماكن، وكانت هذه مُتلازمتكِ التي لم أبرأ منها حتى بعد رحيلكِ وابتعادكِ.

أتدرين؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ألعنكِ كثيراً عندما أشعر بالشوق لمكان ما أو بالضعف أمام أحد! أشعر بأنك من جعلتني بهذه الهشاشة! رققتِ قلبي وألنتِ مشاعري وغادرتني لأواجه العالم بتردد وضعف لم أعهدهما!

تبدين أكثر جسارة مما كُنت عليه! يبدو هذا واضحاً في ردودك في وسائل التواصل الاجتماعي. أصبحتِ أكثر خبرة وأشد حزماً، رغم رقتكِ البينة وبرغمِ لينكِ الواضح.

أتساءل دائماً أكان غيابي من غَيّركِ؟! أم أن الزمن بتجاربه وتقلباته كُلها من غيرتك؟! أشعرتِ بكل ما شعرتُ به حينا ابتعدتِ؟ أتهشمتِ وتمزقتِ وتحطمتِ وتألمتِ كما يُفترض ويتوجب عليكِ أن تشعري؟!

أشعرتِ بذلك الألم الذي نشعر به عند الهجر؟! بألم في النياط الذي يربط بين القلب والرئتين والذي نشعر أحياناً بأنه سيتمزق بفعل الحُزن؟! بالأكسجين الذي نشعر سيتوقف عن الرئتين؟! وبذلك البطء والكسل في نبضات بأنه قلوبنا والذي نشعر أثناءه بأن قلوبنا ستتوقف زاهدة في الحياة؟!

يُقال إن المشاعر فعلياً هي في الأفئدة وليست في القلوب، وإن الفؤاد هو وظيفة وليس بعضو نشعر من خلاله بالوجع والألم والعطب. إن مشاعرنا تظل كما هي حتى لو استؤصلت قلوبنا وزرعت لنا أُخرى

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أو حتى وضعت لنا قلوباً اصطناعية، ستظل مشاعرنا ترا هي لأنها لم تَكُن يوماً بالقلوب بل بالأفئدة!

لذا أعرف إنكِ ستظلين مُتماهية في فؤادي وروحي مها حاولت استئصالكِ من داخلي ومها حاولت اجتثاثكِ من غدتي الصنوبرية! ستبقين شيئاً يُحس ويُشعر حتى وإن لم يُلمس. ولا أقسى من شيء تشعر به حتى آخرك وآخره ولا قدرة لك على أن تلمسه أو أن تمسك به!

يقول تولستوي في اعترافاته إن «الحقيقة المطلقة الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يتوصل إليها هو أن الحياة لا معنى لها»، أتساءل كيف عاش تولستوي كبير الأدب العظيم لكنني في حياة يظن أنها بلا معنى؟ كيف يعيش الإنسان الحياة بلا هدف ولا غاية؟!

لا شك عندي من إنكِ المغزى والمعنى من وجودي في الحياة، رغم أن الحياة تبدو أحياناً وكأنها أُحجية كبيرة شديدة التعقيد، يتعين علينا حلها وترتيب قطعها الكثيرة والمُتشابهة ووضع كُل قطعة منها في مكانها الصحيح للوصول إلى تصور والحصول على معنى.

أعرف إنكِ كُل المعاني وإن لم أقدر على حل الأحجية. لستُ بحاجة لأن أحل الأحجية لأفهم إنكِ المعنى الذي أراد فيكتور فرانكل أن يعالج ويشفي به الناس، وأن يبقيهم على قيد الحياة ويمنحهم الأمل من خلاله.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ المعنى والإرادة والهدف الذي سينقذني دوماً، وسيجعلني دائما أتطلع للغد الذي تعيشين به والذي قد تجيئين إليَّ فيه.

كيف أفقد المعنى في حياتي وأنتِ ما زلتِ حية؟! دائما ما كُنتِ تهددينني عندما تغضبين وبلهجة مصرية لذيذة بـ «مصير الحي يتلاقى»! فكيف أفقد الإيمان باللقيا؟! كيف أزهد بحياة قد تعودين في أي لحظة إليها؟! كيف أتخلى عن هذا الأمل؟!

أتشبث اليوم بكِ يا جُمانة لأنني لا أملك معنى غيركِ لأقاوم وأعيش له. أنتِ دافعي ومُحركي ورغبتي في العيش والمقاومة، فكيف تقطعين على كُل السبل؟! وكيف تجر دينني وتحرمينني من وجود المعنى متوقعة مني العيش والنضال بدونِه؟!

أذكر كيف كُنتِ تلجئين للنوم في أوقاتِ حُزنكِ واكتئابك. كانت تلك هي حيلتكِ الدفاعية. كُنتِ تدخلين في سبات حُزن طويل، تنامين لأيامٍ طويلة وكأن النوم هو وصفتك السحرية، وكأنه الوسيلة التي ستحل كُل مشاكلك! تنامين وكأنكِ ستستيقظين فتجدين كُل شيء كما كان أو كأن كُل الواقع سيتحول إلى حلم تغادرينه حالما تستيقظين، فتنتهي وتتلاشى كُل المشكلة!

بقدر ما كُنت أجد أن هذا ضعفاً وهشاشة أنثوية لا حد لها ولا تشبه حلول الرجال ولا ردود أفعالهم، إلا أنني لجأت للنومِ في بداية رحيلك.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

صدمتني فلم أجد لي مُتكئاً ولا ملجأ إلا النوم. سقطت في ذلك الحُب وكُنت كجريجور في رواية كافكا «المسخ» الذي كان يفكر فيها لو أستطاع أن ينسى كُل ذلك العبث من خلال النوم.

نُمت كثيراً. نمتُ طويلاً. كُنت بحاجةٍ لأن أنتهي من من كُل هذه الفوضى وكل هذا العبث كجرجيور المسخ، لكنني كُنت أراك في كُل مرة أتنبه أو أستيقظ فيها. تجلسين على طرف السرير، تتكئين بذقنك على ركبتك، تبتسمين في وجهي ابتسامتكِ الهادئة الدافئة الصامتة هذه المرة، لأغمض عيني وأنام على ملامحكِ، وأستيقظ مجدداً ليطالعني وجهكِ الدافئ من جديد، مُبتسماً وصامتا مرة أُخرى!

ماذا عساي أن أفهم من هذا الوجود الصامت؟! لم تبقين قريبة إن كُنت ستظلين بعيدة؟! لم هذا القرب/ البُعد ولما هذا البقاء/ الرحيل؟!

ابقي معي وكوني لي، أو ابعدي عني واتركيني! إما البقاء وإما الرحيل!

لم أقدر على أن أفلت منكِ بالمنام ولا أن أتملص منك باليقظة. يؤمن ألبير كامو الذي تحبينه كثيراً بأن «وعي الإنسان هو حاضره»، وقد كُنتِ مُتشربة في وعيبي، مُتغلغلة في لا وعيي ومتشعبة فيه.. كُنت مدموغة في حاضري، وموسومة بياضي ومُقدرة لمُستقبلي، وقد كُنت أرفضُكِ بقوة بقدرِ ما كُنت أسعى إليكِ بشدة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُفكر دائما فيها لو جئتِ، فيها لو أغدق الله عليَّ بالمعجزات وعُدتِ فجأة!

إلى أي نقطة سنعود؟! ومن أي سطرٍ سنبدأ؟! وأي نهاية سنكتب؟! ماذا سنتعلم مما مضى وما الذي سنتجنبه مما هو آت؟!

بقدرِ ما أتوق إلى بداية جديدةٍ معكِ، بقدر ما أخاف من نهاية أُخرى جديدة! قد تُكرهني فيك أو تجتثكِ مني إلى الأبد!

أنتِ التي أحببتُها في غيابها أكثر بكثيرٍ مما كُنت في وجودها. لا أعرف! ربما كُنت أُحبكِ أكثر. ربما لم أشعر بقيمتكِ فعلاً إلا بعدما غادرتني. ربما كُنت أستحق أن ترحلي عني لأعرف فعلا ما كُنتِ تمثلينه حقاً بالنسبةِ لي. كُنت أستحق أن تصفعيني، لكنني لم أستحق أن تُجهزي علي!

من يدري ما تخبئه الأقدار لنا؟! ربما يصبحون أولادي أخوة لأولادكِ! ليس بمقدوري الآن إلا أن أعيش على هذا الوهم وأن أتمسك بالأمل وأن أقبل وأرضى بأنصافِ الحلول وبما لم أكن أتخيل القبول به!

أنا لم أستسلم لك ولم أرضخ لما اخترتِ أنتِ المضي فيه بدونِ أن تشاوريني أو ترجعي لي فيه، لكنني لا أملك الكثير من الخيارات في هذه المرحلة من العُمر، فإما أن أقبلكِ أنت وتجربتك كلها بها ومن فيها،

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

وإما أن أتجاوزك تماماً وكلياً لأخوض تجربتي الخاصة بعيداً، بعيداً، بعيداً عنكِ!

لا أعرف لم أشعر وأُفكر دائماً وكأن عودتك مقدرة لا محالة؟! لا أعرف لم تغيب صورة زوجك دائماً عن المشهد في ذهني وكأنه سيسقط في فجوة الحياة فتنغلق عليه ولا يقدر على أن يخرج منها؟!

أتدرين؟! أُفكر دائماً لم فرطتُ فيك وقد كُنت قادراً على أن أعيش التجربة كلها معك؟! بدلاً من أن أنتظر كُل هذا العُمر في أن تجودي عليَّ بجزء صغير منها أتشاركها معك ومع من قبلت بوجودهم معك!

لا أعرف ولا أفهم لم يفعل الإنسان بنفسه كُل هذا؟! لم يُجاري عِزة نفسه ويتمادى في عناده حتى يخسر كُل ما كان يهمه فيضطر لأن يتخلى عن كُل ما تبقى له من أنفة وكبرياء طامعاً بما تبقى من الفُتات؟! لم يفرط بالرغيف الدافئ في يده ليقاتل بعدها على فُتاته؟!

أستمع أحياناً إلى One's man dream المقطوعة التي تحبينها. أتذكر ياني الذي تخلصين له، وأُفكر كيف كُنتِ تشبهين تفاصيل الأشياء والألوان والأماكن والموسيقى والأفلام التي تُحبينها! وكم كُنت أصيلة في كُل شيء! لا تشبهين أحداً ولا تَقلدين أحداً! وكم هي أصالتُك رقيقة وناعمة! بلا تطرف ولا حِدة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يدهشني كم فاتت عليَّ الكثير من التفاصيل طوال الأربع سنوات التي قضيناها معاً! يدهشني أنني لم ألاحظها إلا بعد رحيلك وكأن ثقتي بحبكِ لي وباستحالة بعدك قد أعمتني عن الكثير من الأشياء وقتذاك!

اليوم تدهشني كُل التفاصيل! تُثيرني كُل الذكريات القديمة! أشتاق اليوم لكل لحظة سابقة، وأحن اليوم لكل مكانٍ جمعني بك!

اليوم لا قدرة لي على التملص من الماضي. لا قدرة لي على طردِ بقاياكِ منه. لا أعرف لم تركتِ كُل شيء خلفك فيه؟!

لمَ لم تحزمي تفاصيلكِ من ماضيي؟! لم أبقيت الذكريات وكأنكِ تنتقمين مني فيها وتجلديني بها؟! نحن لا نذكر كُل ما مررنا به في الماضي، ولا يعذبنا به إلا ما كان حقاً يعنينا فيه، وقد كُنت بالنسبة لي الماضي كُله.. جُله!

إن كان في ماضيكِ شيء لي، ففي ماضيي كُل أشيائك!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم تتواصل جمعيتك معي، ولم أُتابع أو أتواصل معها. كُنت كمن يراقب السماء في فصل الصيف بانتظارِ قوس قزح! كُنت بانتظارِ النادر الحدوث وشبه المُستحيل بلا خطة! لذا عقدت العزم على أن أتوقف عن مُتابعتكِ ومُراقبتك. مررتُ الكُرة إليك في ملعبك وقررت أن أدع الأمور لك من ذلك الآن فصاعداً. كُنت أعرف إنكِ ستجدينني حالما تقدرين وتُقررين الوصول إليّ، فلم تَكُن مراقبتكِ مُجدية ولا ذات معنى!

قررتُ أخيراً أن أنشغل عنكِ بنفسي وأن أُرتب شيئاً من فوضاها. أن أنغمسَ في مشاكلي الكثيرة الأُخرى لألتهي بي عنكِ!

لم يَكُن من الصعب على الحصول على عمل حتى في ظل تلك الظروف الصعبة، لكن لم يَكُن من السهل عليَّ الاندماج في عمل جديد وببيئة جديدة لم أعتد العمل أَو العيش فيها. كُل ما كان حولي كان جديداً علي، وكأنني لم أعش العشرين عاماً الأولى من حياتي في هذا المجتمع!

يسهل علينا في شبابنا التكيف والتعايش في أي مكان جديد وبأي بيئة مهما كانت مُختلفة عنا، فالإنسان يولد كالعجينة اللينة، تزداد قسوة مع مرور الزمن حتى يستحيل عليه التشكل والتغير عندما يتقدم به العُمر.

أتدرين؟! مشكلتي العظمى بعدما رحلت لم تَكُن أبداً في غيابكِ بل في انتظاركِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم يَكُن يؤلمني الغياب بقدر ما كان يؤلمني الانتظار. كُنت أشعر وكأن كُل ما في حياتي عالق في الزمن الماضي، وكأنني مضطر للسعي في كُل شيء والاستمرار بكل شيء بدونِ أن تكون لي قدرة على الاستمتاع بشيء مما حصلت عليه أو أنجزته. كانت حياتي تحصيل حاصل. لم يَعُد لأي شيء فيها معنى أو قيمة.

عندما كُنت حُراً قبل أن أعرفكِ، كُنت أستمتع بأتفهِ وأبسط الأشياء. كُنت مكتفياً بذاتي ممتلئاً بها، لكنك خلفتِ بداخلي من بعدكِ خواء عظيماً، فراغاً واسعاً لم يقدر شيء على ملته ولا على أن يشغله. تشاركتِ معي كُل شيء فأصبحتُ لا أشعر بأي متعة إن لم يَكُن هُناك من أشاركه لذة تحقيقها!

كيف تلاعبتِ باستقلاليتي وغيرتِ من مفاهيمها؟! كيف أقحمت الآخر والمشاركة في تفاصيلِ مُتعتي وفي خطوط قناعاتي؟!

كيف أصبحتُ من بعدكِ أكترث بهو وهي وهاتين وهاذين وهم وهن وهؤلاء وتلك وذلك وذانك وتانك وأولئك؟!

لم أقحمتِ كُل العالم في خريطتي وجعلتهم شركاء معي في أرض مشاعري، ومؤثرين في حدودِ حياتي، ومن ثم تركتني وحدي معهم أتخبط في مراعاتهم ويتخبطون معي في مراعاتي! من قال لك إنني لم أكن سعيداً بعلاقاتي السطحية وطبيعتها الباردة؟! من قال لك إنني أحتاجُ

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لأن أكترث ولأن أتعلق بالآخرين أو لأن يكترثوا أو يتعلقوا بي؟! من أقنعكِ بأنني بحاجة للآخرين وبأنهم بحاجة إلي؟!

أنا لا يُكملني غيركِ، ولا أحتاج لسواكِ، فلم أقحمتِ العالم بيننا ولم ضممتهم لنا؟!

أرقب الشباب والشابات في فريق عملي الجديد يتناقشون في أحد الاجتماعات. أنقل عيني بينهم وهم يتناقشون. أتأمل فورة شبابهم في أعينهم وعنفوان أحلامهم فأشعر بأن الكثير والكثير قد فاتني!

ألمح نظرات الإعجاب في أعينهم المُتعلقة بي حينما أتحدث، مُنبهرين بذلك المدير الشاب الذي قضى نصف شبابهِ مُغترباً، طالباً وموظفاً، مُبتعثاً ومقيماً، حالمين ومتمنين الحصول على نفس التجربة! أتصدقين ذلك؟! أليس من المضحك حقاً أن أغبطهم وأن يغبطونني؟!

أتذكر بدايةِ عشرينياتكِ قبل عشرةِ أعوام، شقاوتكِ، ونشاطكِ وعينيكِ اللتين تنبضان بالحياة. أمن المعقول أن تكوني قد فقدتِ كُل ذلك البريق بمعاركِ الزمن وفي مطحنة الوجود وحروب الحياة؟!

غالباً لا يتغير الرجل بعدما يصبح أباً، لكن المرأة تتغير كثيراً، جذرياً وكلياً في بعض الأحيان، ولا شك عندي من إنكِ من اللاتي على استعداد دائماً لأن يفقدن أنفسهن في سبيلِ الأمومة ولأجل الأطفال!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ التي تتجلى في الحُب وتتخلى لأجله، القادرة على أن تتشكل بشكل جديد في كُل فصل من فصولِ حياتها بسهولة وبساطة ونعومة وطيب خاطر!

أُدرك إنكِ قد تغيرت كثيراً من أجلِ ولأجلِ الأمومة، لكن مثيلاتكِ لا يفقدن أصالة أرواحهن مها تماهين مع المستجدات ومها تعايشن وسايرن المُتغيرات. ستظل روحكِ كروح الفراشة مها كبرت ومهما تغيرتِ، وإن تزوجتِ ألف مرة وأنجبت آلاف من الأطفال!

كان من مزايا الحصولِ على عمل جديد هو أنني أصبحتُ أُشارك أمي فطورها كُل صباح قبل الذهاب إلى عملي. كانت تلك أول مسئولياتي من بعدِ وفاة والدي، الإرث الأول والواجب الأول! حرف الألف في أبجديات الالتزام!

كُنت أرقب أُمي في أيام حدادها الطويلة فتبدو وكأنها غريبة علي، مُختلفة جداً بلا كحلٍ ولا عطرٍ ولا ابتسامة. أراها تمسح في كُل صباحٍ دمعة فارة في كُل مرةٍ تذكُر أن فيها فترحم عليه فجأة، فيدهشني ذلك الحُب الذي نما بينها مُتأخراً بفعل الزمن والعِشرة.

كُنت أجلس أمامها على طاولةِ الطعام تاركاً مقعد أبي على رأس الطاولةِ خالياً، المقعد الذي لم أجرؤ يوماً لا من قبلِ رحيله ولا من بعده على أن أجلس عليه وكأنه العرش الأوحد والكرسي المُقدس.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

اقتربتُ منها لأُقبل رأسها، فأشارت إليَّ بيدها لأن أجلس في مقعد والدي وهي ترد: صبحك الله بالنور يا أمي. وراك ما تجلس على رأس الطاولة؟!

أجبتها مُغازلاً وأنا أجلس في مقعدي المُعتاد المقابل لها: عشان أقابل وجهك الطيب الحلو.

قالت وهي تصب لي الشاي مُتجاهلة ما قلته: خلاص أنت رجال البيت من بعد، أبوك الله يغفر له ويرحمه. لازم تجلس على رأس الطاولة من اليوم ورايح. هذا مكانك خلاص!

مددتُ يدي لها وأخذت منها كوب الشاي. تأملتُ الطاولة التي كانت تحتوي على كُل الأطباق التي كان يفضلها أبي على الفطور. البيض والجبن والفول والزعتر مع زيت الزيتون والعسل والقشطة. نظرت إلى مقعد أبي الفارغ فلم أقدر على أن أمنع ابتسامتي ودهشتي من تلك الفكرة. الرجولة والسيادة والإرث وكل الأفكار التي يمثلها المقعد على رأس الطاولة بالنسبةِ لأُمي، والذي تنوي أن تتوجني رسمياً كوريث للمقعد ووريث لوالدي!

قالت وهي تقرب إليَّ الأطباق كعادتها في كُل يوم: إلا أنت متى ناوي تتزوج ؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- يالله صباح! خير يمه!

- وش فيك؟ وش أنا قايلة؟!

- أنتِ اللي وش فيك اليوم عليَّ يمه! من الصبح ما شاء الله عليك!

- هه! وش فيني عليك؟! إذا بفرح فيك يعني متسلطة عليك؟!

- تفرحين فيني وأنتِ بحداد؟!

- وأنا قايلة تزوج بكره؟!

- وهالمرض الله يمرضه؟!

- المرض مهوب مستمر إن شاء الله. ربي بيرفعه عنا!

قُلت وأنا ألوك الخبز بدونِ أن أستطعمه: إن شاء الله يمه، يصير خير إن شاء الله!

- تسكتني يعني بيصير خير؟!

- العفو يمه ما أسكتك ! بس ممكن نأجل الموضوع لبعدين؟! ما هو وقته!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- متى يجي وقته؟! راح عُمرك وامتلأ رأسك شيب ولا جاء وقته! اللي قدك عيالهم بالجامعة! أخوك اللي أصغر منك شف عياله طوله ما شاء الله!

- أمر المؤمن خير!

قالت بسخرية على الرغمِ منها: ما شاء الله على الإيمان!

ضحكت وقُلت محاولاً تغيير دفة الحديث: والله الظاهر أنكم بتطفشوني وتنحشوني! تراني برجع كانكم بتشدون عليَّ كُل يوم!

- ترجع لمن؟! مالك أحد ترجع له! إلا كان لك أحد هناك وما علمتنا!

- تطمني يمه. مالي أحد لا هنا ولا هناك!

- ليه وحنا وين رحنا؟!

- أنتِ عارفة وش أقصد! ريحي بالك وأذكري الله!

هزت رأسها بضيق ونفاد صبر: لا إله إلا الله!

تبادلنا الصمت الطويل. أطرقت برأسها سارحة بدونِ أن تأكل أو تتكلم. عقدت حاجبيها فجأة وكأنها قد تذكرت شيئاً. رفعت رأسها وسألتني وقد

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ضاقت عيناها كعادتها عندما تحاول أن تتذكر شيء: وش اسم البنت اللي كُنتِ تبيها من أول؟

- أي بنت؟

- اللي خطبناها لك! ما خطبنا لك غيرها!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

صفقت بيديها بعصبية وصاحت مستنكرة: وش بلاك؟! وش أنا قايلة؟!

- الله يهديك يمه وش هالأسئلة الغريبة من صبح الله!

- سؤال! أسأل سؤال بس! وش اسمها؟

قلت لها وأنا أنفض فتات الخبز من على ثوبي: ما أذكر اسمها!

- تزوجت؟!

- ما أدري! ما أذكر اسمها ولا أعرف عنها شيء ..

قُمت من مكاني مُستعجلاً وبيدي كوب الشاي. قبلتُ رأسها وقلت لها محاولاً إنهاء الحديث: إذا بغيتي شيء طال عُمرك دقي علي..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- اجلس! ما أكلت!

- الحمد لله شبعت!

خرجتُ من عند أُمي مزعوجاً ومتضايقاً ذلك الصباح. أزعجني أنني أنكرتُكِ وتناسيتُكِ وتجاهلتك! أزعجني إنك أصبحتِ العُقدة التي بات يعرفها ويلاحظها من حولي، والسؤال الذي لم أعد أملك عليه أية أجوبة!

لامني أهلي كثيراً حينما تخليتُ عنكِ قبل عشرِ سنوات. كُنت المرأة الوحيدة التي طلبت منهم أن يتقدموا بخطبتها لي. عقدوا عليك الكثير من الأماني، والحق إنكِ كُنت لي كُل الأحلام، لكنني لم أجرؤ على الزواج منك حينذاك. كُنت أجبن بكثير من أن أُقدم على خطوة كبيرة ومصيرية كتلك الخطوة. لم أكُن وقتها قادراً على الالتزام فانسحبت. خذلتكِ وخذلتهم وخذلتُ نفسي قبل أي أحد.

غبتُ طويلاً بعد ذلك الانفصال. هجرتُ الرياض لفترة طويلة. كُنت خجلاً منها، متوجساً من عتابِ أهلي وغضب والدي. كُنت خائفاً من الرياض التي كُنتِ تمثلينها وكانت تُمثلكِ دوماً في عيني. خفتُ أن تنتقم لكِ مني وأن تلعني مرة أُخرى بلعنة جديدة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أعرف ما كانت أمي تود قوله، مثلما أعرف كم هي مُحقة. لذا لم أقدر على أن أسمع عتابها حتى بعد مرور كُل هذا العُمر من تلك الحكاية.

دائماً ما كُنت أكره المواجهة وأمقتُ الحقيقة. دائماً ما كُنت أنسحب في الأوقات التي ينبغي عليَّ أن أواجه فيها. الانسحاب دائماً ما كان أسهل الحلول بالنسبة لي رغم قوتي، بينها كانت المواجهة دائماً أفضل الحلول بالنسبة لك رغم نعومتكِ وهشاشتك.

لو عاد لما انسحبت من ذلك المصير! لأقدمتُ الزمن عليه بقلب جسور! لحصلتُ عليك وجازفتُ بالإقدام على المستقبل بها فيه من خبايا بإيمان المحب وبصيرةِ العاشق!

لو كُنت قد دفعتني قليلاً ربيا لكُنت غامرت وأتممتُ زواجنا ولكُنت معي الآن! لكنكِ تراجعتِ كثيراً بعد انسحابي. لم تشجعيني، ولم تمنحيني فرصة التصحيح. لملمتِ كبرياءكِ وعاقبتني بالغياب، فطال وطال حتى انتهت علاقتنا وأصبحتِ للرجل الآخر الذي احترم كبرياءكِ، وأصبحتُ فجأة بدونِكِ... وحدي!

أرقب الرياض من حولي، بصيفها الحار الذي لم أنسَ قسوته. أتخيل كيف كانت لتكون الرياض لو كان لي بيت فيها تُشاركيني إياها وتُحييه أصوات أطفالنا الذين يُشبهونكِ ويشبهونني؟! كم كان ليكون للعمل وللبيت معنى! كم كان ليكون للزواج وللأبوة قيمة وقدر بالنسبة لي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ليتنا قادرون على أن نشطب ونحذف ذلك العام من تاريخنا! ليتنا ننساه أو نعود إلى ما قبله! ليتنا نقدر على أن نصحح أخطاء الماضي، وعلى أن نتجاوز طيشه وسقطاته الكثيرة أو سقطاتي فيه!

أنا وأنتِ اليوم في نفس المدينة. تتنفسين معي نفس الهواء وتمرين غالباً بالشوارع نفسها. تتأملين تلك السحابة الصيفية الغريبة والعابرة. تنتظرين المطر بشوق طفلة تؤمن وتنتظر المعجزات، وربا تسمعين الآن لفيروز أو صباح فخري أو ربما زكي نصيف، لشيءٍ أصيل ومُختلفٍ مثلكِ تماماً!

أرفع هاتفي وأفتح على تطبيق تويتر لأبحث عن صباح منكِ كعادتي. تبدأ صباحاتُكِ مُبكرة دائما!

ولا يستهويني تويتر كثيراً. أكتب به كُل يوم فقط لأبقيكِ على اطلاع، ولنظل على تواصل وإن لم نتواصل. أدرك إنكِ تراقبيني بلا مُتابعة مُباشرة لحسابي، وأؤمن إنكِ تُفكرين بي مثلما أُفكر بكِ أحياناً. ربما أقل بكثيرٍ مما أفعل، لكنك تفكرين بي بلا شكِ ولا محالة!

أُفكر : كيف تتجاوز امرأة بسيطة مثلكِ رجُلاً أحبها وأحبته؟! كيف تنسى أو تتناسى مشاعرها العذراء وحكايتها البِكر؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت أعرف أنني أُحبكِ كثيراً حينما كُنت معي، لكنني لم أتصور أن تُخلفي بداخلي كُل هذا الألم بعد هذه الفترة الطويلة من العُمر! كان من المفترض ومن الطبيعي أن أتجاوزك بعد أشهر، عام، عامين، ثلاثة أعوامٍ في أسوأ الأحوال!

لا أعرف كيف بقيتِ بداخلي حية حوالى عقد كامل من الزمن؟! لا أعرف كيف ولم بقيتِ؟!

هل كان ليُغضبكِ تجاهلي إياكِ حينما سألتني أمي عنكِ؟! ما الذي كان من المفترضِ أن أجيب أمي به؟! هل كُنت لأبكيكِ كطفل صغير عندها؟! أم كُنت لأخبرها أنني ما زلتُ أقفِ على أطلالكِ بانتظار أن تنفضي الرماد عنكِ كعنقاء، لتقابليني في هليوبوليس فنكمل ما تبقى لنا من الحياة معاً!

هل كان ليُسعدكِ أن أنعى علاقتنا حينما أُسأل عنكِ؟! أُدرك أن امرأة مُفرطة ومُتطرفة في رومانسيتها مثلكِ تُحب أن يُبجل مرورها، وأن يعترف بطغيانِ حضورها، لكنك امرأة مُتزوجة الآن! أكثر ما يمكن أن أُسديهُ لك هو أن أُنكرك تماماً، أن أتجاهلكِ كُلياً وكأنكُ لم تمُري ولم تَعبُري!

دائماً ما كُنت أنتفض على أوجاعي، أنقلبُ عليها وأُصارعها بيدين عاريتين كالإنسان القديم الأول، حتى أغلبها وأمضي مُلتقطاً أنفاسي

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

وململاً قواي شبه الخائرة. كُنت على عكسي تماماً! تغرقين أنت في خيباتكِ وأحزانكِ حتى ينتشلكِ أحد منها. لا أعرف لم وهنت مقاوماتي وكيف أصبحتُ بهذه الهشاشة؟!

أحاول أن أفهم ما الذي جرى لي في السنوات الماضية. لم وكيف تغيرت؟! هل تغيرت بفعل العُمر أم بفعل الحُب الذي استهنتُ بسطوتهِ عليَّ ولم أقدر تأثيره عليَّ حق تقدير؟!

أُفكر كثيراً فيها سيخلفه هذا الوباء في البشر وما سيخلفه بي أنا تحديدا. كيف ستشكلني هذه التجربة من جديد وأي عالم هذا الذي سنعيشه بعدها أو سنعايشه في حال ما استمر؟! أرقب العالم الذي يتداعى حولي وأُفكر بمدى تفاهة وهشاشة هذا العالم! كيف كنا نعول على الأنظمة الصحية وعلى التقدم العلمي والطب والعلاء بدونِ أن نُدين لهم بشيء أو نمتن لهم على شيء؟! وكأن كُل ما فعلوه وما يفعلونه هو واجبهم الذي لم نلاحظه قبلاً ولم نكن لنلاحظه الآن لولا وحشية الخوف وفداحة الخسائر!

لم تتهاوَ الحياة الآن؟! لم الآن؟! لم في الزمن الذي أعيش به؟! لم عليَّ أن أشهد وفاة بعض ممن أحبهم وأن أخاف على البعض؟! لم تستعر الحياة في الوقتِ الذي احتجتُ فيه أخيراً لأن تستقر؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

وإن كانت هذه النهاية، فلم كُل هذه الدراماتيكية فيها؟! لم كُل هذا الخوف والألم والعذاب؟! لم لا ينتهي العالم بسلام مثلما بدأ بسلام؟!

لطالما تمنيت أن ننتهي كُلنا في ذاتِ اللحظة. أن يتلاشى العالم في لحظة. أن يُسدل ستار الحياة، فنموت جميعاً ونعبر لما بعدها بدونِ أن نُعاني الفقد، وبدونِ أن نتلظى بالخسارة. بدونِ أن ننتظر الموت وأن نترقب أن يلقي المرض بظلالهِ علينا.

كُنت الحقيقة أنني لم أخَف المرض حتى في بداياته المفجعة والمُفاجئة. كُنت أرقب انتشاره واقترابه بلا مبالاة وعدم اهتمام. كشاب مُغامر، لا يخشى الموت ولا يهاب الأمراض، متوقعاً تلاشيه وانحساره في أي لحظة، لكن رؤية ما فعله المرض بوالدي غيرت الكثير من رؤاي، وأعادت تشكيل مفاهيمي من جديد! فالحياة قيمة حتى على من أنهكتهم وعبثت بهم الحياة، فكيف بمن ينتظر منها شيئاً وبمن يعيش على أمل فيها؟!

لا يعرف أحد منا حتى الآن كيف انتقل الفايروس لوالدي! هو الذي لم يُغادر البيت منذ اللحظة التي أُعلن بها الحجر الصحي في الرياض وحتى اليوم الذي نقل به مصاباً إلى المستشفى قبل مُفارقتهِ الحياة.

كنا قد منعنا الاختلاط بأي أحد من خارج البيت بما فيهم وليد وأخواتي، ولا يعرف ولا يفهم أحد كيف ومن أين انتقلت العدوى إلى والدي فجأة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

في بداية ظهور الأعراض، كان أبي يشتكي من آلام عظامه، والتي ظننا ببداية الأمر أنها مُجرد أعراض طبيعية ومُعتادة للشيخوخة، خاصة وأننا كنا في فصل الصيف وقد كان والدي يتعرض للتكييف العالي طوال الوقت بداخل المنزل.

فقد والدي شهيته للطعام تماماً، بعدها بيومين، وفهمنا بعد ذاك أن ذلك كان بسبب فقدانه لحاستي الشم والذوق. في اليوم الرابع من ظهور الأعراض ارتفعت حرارته فجأة وبدأ يسعل وأُصيب بضيق بالتنفس، ولم يَكُن هناك مجال لأن تكون كُل هذه الأعراض إلا أعراض الإصابة بكورونا، رغم الحجر التام وعدم الاختلاط بأي أحد من خارج البيت.

نقلته للمستشفى بعد طلب الإذن من الجهات المعنية بكِسر تسمح لأن يخضع لإجراء مسحة الحجر. لم تَكُن حالته بالبيت وانتظار نتيجتها بعد يوم كامل.

أُجريت المسحة له وأدخل مُباشرة إلى العناية المُركزة انخفاض معدل الأكسجين لديه. بقيت أنتظر في المستشفى النتيجة، فظهرت إيجابية بعد ثمانِ ساعات طويلة من الانتظار!

لا قدرة لي على وصفِ مشاعري حينما ظهرت النتيجة! تذكرت وجهه النائم وهم يخلعون الشماغ الذي يحيط برأسه لينقلونه إلى قسم العناية المُركزة. حينما أمسكت بيده الضعيفة بعروقها البارزة وتجاعيدها

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

العميقة وضغطت عليها بيدي التي كان يعزلها عن يده القفاز الطبي الذي كُنت أرتديه. اقتربت من أذنه بكامتي ونادیته: يُبه!

كُنت أُريد أن أوقظه لأطمئنه عن حاله ولأؤكد له أنني موجود بجواره. خشيتُ أن يفتح عينيه فجأة فيجد نفسه وحيداً في العنايةِ المُركزة فيشعر بالخوف أو يظن بأنني قد تخليت عنه وتركته وحده فيها.

لم يفتح عينيه ولم يستيقظ. طلبت من الممرضة أن تُخبره حالما يستيقظ أنني بانتظاره في الأسفل. رأيتهم يسحبون سريره باتجاه المصعد لنقله، وجهاز الأكسجين موصل بقناع التنفس الموضوع على أنفه وفمه المفتوح. كانت هذه آخر مرة أرى والدي يتنفس فيها حياً!

أجريتُ المسحة حالما أخبروني في المستشفى عن إيجابية نتيجة والدي، وطلبوا مني أن أتواصل مع وزارة الصحة ليخضع كُل من في البيت وكل من خالط والدي لنفس الإجراء.

كان الخبر مُرعباً لوالدتي وكل العائلة! كانت كورونا مُخيفة في بداية ظهورها في السعودية، قبل أن تكسر الأعداد الكبيرة ونسب الشفاء العالية حاجز الخوف ووهم النهاية.

الغريب أن أحداً منا لم يُصب بالمرض! كانت نتيجتي وأمي وكل العاملين بالبيت سلبية تماماً! لذا بقي لُغز إصابة والدي غريباً ولا يفهم!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ولا يفهم أحد منا ولم يستطع أحد من المُتخصصين أن يشرح لنا كيف لم تنتقل العدوى لأحد منا رغم وجودنا جميعاً في نفسِ البيت! بل وبمشاركة أمي والدي نفس الغرفة وذات السرير!

بطبيعة الحال، مُنعت الزيارة تماماً وكُلياً عن والدي حيث كان يخضع للعلاج في قسم العناية المُركزة المخصص بمصابين كورونا والمعزول تماماً عن بقية الأقسام والإصابات.

لم يمهل المرض والدي طويلاً. تدهورت حالته سريعاً في أيامٍ قليلة حتى تمكن الفايروس من رئتيه وأجهز عليه، فات الشيخ الطيب الذي لم يقاوم طويلاً. ربما لشراسة الفايروس ولؤمه، وربا لرضا الشيخ الكبير ورغبته بالاستسلام والرحيل.

لا أعرف حقيقة إن كان والدي قد تعذب في مقاومته للمرض وضيق التنفس أم أنه رحل براحة وسلام كما كان يستحق أن يرحل! لا أعرف إن كانت في أيامه الأخيرة لحظات يقظة أدرك فيها إصابته أو خشي فيها وجوده وحيداً بالمستشفى.

كل ما تمنيتُ لحظة ما تلقيت الاتصال الذي أُبلغت فيه عن وفاته وكل ما سألته عنه هو أن يكون قد توفي بلا ألم، وألا يكون قد استيقظ بعد اللحظة التي سحبوه فيها بسريره لنقله للعناية المُركزة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

حتى لم تَكُن هناك إجابات على هذا السؤال، وأعرف أنه لو كُنت قد وجدت إجابات على أسئلتي وتساؤلاتي فليس بالضرورة أن تكون حقيقة أو صادقة. كُنت رجُلا مفجوعاً بوالده، وبطبيعة الحال كُنت سأجد إجابات مواسية لتطمئن مشاعري وتُريح أفكاري.

كل ما تمنيته وما احتجته حقيقة هو ألا يكون قد شعر بالوحدة ولا الخوف ولا الألم!

لم أكن أتمنى ولا حتى أتخيل أن يرحل والدي بهذا الشكل! ولا أن يغسل ويُكفن ويودع بهذهِ الطريقة!

كيف يموت والدي بدونِ أن يكون معه أسعد منا؟! بدونِ أن نُغسله وأن نكفنه، وبدونِ أن نقيم له عزاء يليق بمكانتهِ بين أهله ومعارفه وبسنواته وشيباتهِ الثمانين الذي كان يتفاخر دائها بأنه شاب بها مُسلماً!

كُنت أرقب ذلك الكيس البلاستيكي المتين الذي يُحيط بجثمانه، وأولئك المُمارسين الصحيين بملابسهم الواقية وقفازاتهم وأرديتهم البيضاء وكمامتهم البلاستيكية المانعة للعدوى وهم يحملون جثمانه إلى تلك الحفرة الصغيرة. رأيتهم ينثرون فوقه التراب، تاركيه لوحده في تلك الحفرة وحيداً، بدونِ أن يرافقه إليها أحد يُحبه أو حتى يعرفه.

اقتربتُ وأخي وليد وأصغر أعمامي وأزواج أخواتي وأبناؤهن إلى القبر بعدما غطاه التراب. نزلتُ على ركبتي على الأرض، وضعت

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يدي على التراب لأربت على والدي، فرفعها زوج أختي بسرعة وقوة! لم ينبس بكلمة، ولم أكن بحاجة لأن يشرح لي لم فعل ذلك! رفعت رأسي إليهم فوجدتهم واقفين متباعدين، بكماماتهم التي تُغطي أنصاف وجوههم، والشمس الحارة تسطع من خلف ظهورهم حتى تكاد أن تكون ملامحهم سرابية. كان التمييز بينهم صعباً بفعل الشمس القوية الحارة. نزل وليد على ركبتيه أمامي. نظرتُ إليه فوجدت عينيه مبللتين ، يدي على الرغم مني ووضعتها على كتفه، بالدمع. مددتُ فرفعها زوج أُختي من جديد بقوة وهو يذكرنا بالفايروس والعدوى!

لم يَكُن من المُفترض أن ينتهي والدي بهذا الشكل! ليس هو ! لكنني أعرف أن سيناريوهات الموت دائماً ما تتغير في نهايتها. لا قُدرة لأحدٍ على أن يختار النهاية التي تليق به، النهاية التي يتمناها وتُناسبه، إلا من يختار الموت ويُقدم عليه بنفسه!

أحاول أن أعزي قلب أمي وأخواتي، أواسيهن بأن علاء الأُمة قد ة قد أجمعوا على أن ضحايا الكورونا شهداء، من باب «ومن مات بالطاعون فهو شهيد». أرقب أساهم والوجوم الذي يرتسم على وجوههم، بين الحُزن على خسارة الحُبيب فجأة وبهذا الشكل، وبين الخوف من أن تكون العدوى قد انتقلت لأحد منا.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

خفتُ من المرضِ كثيراً عندما أصيب أبي به. خفتُ منه كثيراً حينما رأيت حالة والدي تتدهور، وفجأة فقدت كُل مخاوفي حينما خسرتُه بسببه.

كُنت أُفكر: ما الذي سيفعله الوباء بي أكثر مما فعل؟! من سيجتث مني؟! من سيكون التالي؟!

لم تَكوني قريبة لتنتشليني من حُزني ولتدفعيني للحياة والبقاء، ولم تَكوني بعيدة لأفقد الأمل كُلياً وأستسلم للموت والفقد تماماً!

كان موت أبي تراجيدياً وصادماً لدرجةٍ لم أتخيلها يوماً! صُدمت جداً! اكتأبتُ كثيراً وانكفأتُ على نفسي على غير عادتي. أنا الذي لطالما كُنت أصهل كخيل حرون وأعدو بقوة مهما كان حجم الخسارة ومهما كانت مساحة الحُزن التي تحيط بي!

لم تَكُن خسارته ورحيله المؤلم بقدرِ ما كانت طريقته في الرحيل الموجعة بالنسبةِ لي! كان هذا السيناريو جديداً وسريعاً وصادماً لأستوعبه وأتوقعه وأفترضه!

تذكرتُ أول مرة قرأت فيها عن الكورونا في مطلعِ العام الجديد. بدا لي بسيطاً وبعيداً رغم تصاعد الإصابات السريع وفظاعة الأخبار. لكنه

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان بعيداً تماما عن خارطتي ومخاوفي وتوقعاتي، فما يحدث في الشرق الآسيوي غالباً ما يبقى فيه، فتلك البقعة الخصبة للأمراض الجديدة والأمنية غالباً ما كان يُسيطر على ما يظهر فيها بدونِ أن يطال العالم خارجها شيئاً نه. لم يَكُن الأمر ليقلقني أبداً!

مُجرد مرض مُستجد. نسخة جديدة من مرض سابق. كان من المُمكن أن يظهر بدونِ أن نعرف عنه أي شيء، كما كان من المفترض أن يتلاشى بدونِ أن نعرفَ عنه شيئاً.

لطالما كُنت أؤمن بأن النظام الصحي في بلادي متقدم ومتمكن لدرجةِ مُطمئنة. كُنت مطمئناً إلى أن أوطاننا في الخليج العربي غنية وكريمة على مواطنيها، وقادرة على أن توفر العلاج لهم حالما يتوفر اللقاح أو الدواء، الذي كان من المُفترض أن يكتشفه ويوجده العلماء في أقربِ وقت مُمكن قبل أن يفتك المرض بمن نُحب، قبل أن يُصاب ويموت به أبي أنا!

لم يقلقني المرض حتى حينما بدأت الإصابات تتوسع وتنتقل إلى أوروبا والشرق الأوسط. كان مصيره لينتهي مثلما انتهى زيكا وأيبولا وكورنا الشرق الأوسط وإنفلونزا الخنازير. لم يَكُن الوباء ليطال أحداً ممن أُحب، لذا لم أُكُن أهتم به ولم يَكُن يعنيني! لم يعنني يوماً الإنسان في الطرف الآخرِ من العالم! لم أكترث لا بحياته ولا بموته مادام لا يؤثر على حياتي وموتي فالأمر أبداً لا يعنيني!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أكن أكترث لما يجري في أرجاء العالم! لم يَكُن يهمني الفقر ولا الجوع ولا الحروب ولا المتاجرة بالبشر! لم أهتم لا بالمرضى من الأطفال والعجائز ولا بمن يغادرون الحياة مُخلفين خلفهم الكثير من الأحبة والأحلام! لم يَكُن يهمني سواي ومن هم في دائرتي العاطفية الصغيرة والضيقة والخاصة جداً!

توسعت دائرتي حينا توسع المرض وتمدد وانتشر. أصبحتُ أكترث قسراً لأي إنسان يموت في أي رقعة وأي مكان.

كُنت أشعر بالمرض يدنو كُلما أصيب به إنسان ما على الكُرة الأرضية. لم أكُن أخاف المرض رغم رئتي المعطوبتين بفعل التدخين، وكبدي الذي لا شك عندي أنها تضررت بفعل الكحول، لكنني خفتُ كثيراً من أن يصاب والداي به. والداي الكبيران بالعُمر والمصابان بمعظم الأمراض المزمنة بِحُكم العُمر وفعل الوراثة. خشيتُ كثيراً أن يتعذبا به، لا أن يموتا فيه! لم يَكُن الموت من الافتراضات رغم شيخوختها وأمراضها المُتنوعة. لم يَكُن هذا التوقع مطروحاً حتى في أسوأ التوقعات وأقبح السيناريوهات.

دائماً ما كُنت شديد التشاؤم. دائما ما كُنت أفترض أسوأ الاحتمالات، لا خوفاً منها بل استعداداً لها، لكن رحيل أحد والديّ مُتأثراً بهذا الفايروس لم يَكُن متوقعاً حتى في أقسى وأبشع توقعاتي وافتراضاتي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

رحل والدي قبل أن أكتفي منه وقبل أن يكتفي مني. غادر قبل أن نُغلق كُل الملفات ونُنهي ونحل كُل المسائل العالقة والمُعلقة!

كرهتُ ذلك القاتل غير المرئي بشدة! كرهتُ خُبثه وشراسته، ومقتُّ ضعف وضآلة الإنسان أمامه.

انعزل كُل فرد من أفراد العائلة في بيتهِ وفي غرفتهِ بعد الدفن. كانت هناك الكثير من المخاوف في أن تكون العدوى قد انتقلت لأحدٍ منا. خشينا أن ننقلها لأمي المكروبة والمكلومة والمُلتاعة والضعيفة.

طُلب منا أن نعيد إجراء المسحة بعد أربعة عشر يوماً من المسحة الأولى للتأكد من عدم الإصابة. زادتني تلك العُزلة وجعاً واضطراباً. وجدتني فجأة أنفردُ بأفكاري وأختلي بمشاعري التي كانت في أعقد وأحلك حالاتها. وجدتني فجأة وحيداً أمام خسارة غير متوقعة، وعدو لا يُرى، وماضٍ لا ينتهي ولا يموت!

كُنت وحيداً جداً تلك الأيام. أنا الذي لطالما عاش وحيداً من دون أن يشعر أبداً بالوحدة. كُنت محاطاً بالكثيرِ ممن أحبهم وبمُعظمِ من يحبونني، لكنني كُنت وحيداً جداً في حُزني، وحيداً بدونِكِ، وحيداً أمام مُباغتات الحياة ومفاجآت القدر!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كانت تلك الأيام القائمة أيام حجر صحي تام وكامل في الرياض. لم يَكُن من المسموح لأحد بمُغادرةِ البيت إلا للضرورة. كُنت أخرج لحديقة البيت وحدي أحياناً في مُنتصفِ الليل، فأسمع أصواتِ العصافير التي لم يسبق لي سماع صوتها من بعد غروب الشمس والتي كُنت أتخيل وأعتقد أنها تنام طوال الليل! كان للأشجارِ صوت، وللطيور صوت، وللهواء صوت، وكأن كُل ما حولنا يود أن يبوح قبل فواتِ الأوان!

لا أعرف لم علت فجأة أصوات الحيوانات وأصواتِ الطبيعة؟! أبسببِ صمتِ الناس والمركبات المفاجئ؟! أم أنها كانت ترغب وتحاول وتسعى لأن تخبرنا بها لا نعرفه ولا نفهم عمّا ستؤول إليه الأمور وإلى ما تنحدر باتجاهه الحياة!

كان البيت غريباً ومُختلفاً جداً من بعد وفاة والدي. دائماً ما كُنت أشعر بحضوره وسطوته تملأ الأرجاء عندما كان حياً، حتى وإن لم يَكُن موجوداً حاضراً حينما في البيت!

كان من الغريبِ أن يتلاشى ذلك الإحساس ! أن يختفي ذلك الحضور! أن أشعر أن شيئاً مُميزاً وخاصاً غدا ناقصاً في روحِ المكانِ وأجوائه وطبيعته!

أيقنتُ أن لكُلِ مكان روحا حينما غادرتِني. كُنت أذهب لكل الأماكن التي كنا نجتمع بها سوياً، فأشعر بالفراغ الرمادي وبالخواء البارد يملأ

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الأركان، فيدهشني أين وكيف اختفى ذلك الدفء وتلك الحميمية التي كانت فيها! كان هذا واضحاً أيضاً حينما رحل أبي وترك لنا المكان شِبه المكان. لم يخفف من برودته وغرابته إلا وجود أمي وروحها الدافئة التي حاولت أن تحتوي فقدنا جميعاً على حسابِ فقدها. هي التي عايشت تفاصيل ذلك الشيخ ولحظاته المُرة والحلوة، والتي تعرف حكاية كُل شيبة ابيضت في رأسه وكل تجعيدة نُحتت على وجهه!

عرفتُكِ لأكثر من أربع سنواتٍ وخسرتُكِ منذ أكثر من عقد، وما زلتُ أغالب مشاعري تجاهكِ في كُل يوم، فكيف بالمرأة التي خسرت شريكها لأكثر من خمسين عاماً؟! شاركته فيها العُمر والحياة والظروف والأحداث والفراش والأحلام والأبناء!

كيف قدرت على أن تلملم شتات حزنها وبقايا ارتياعها؟!

أتأملها حينما تفتح الباب لتطل عليَّ من بعيد. تسألني عن حالي وعيناها صغيرتان وضعيفتان من فرطِ البكاء، عاريتان من دون الكحل حداداً. تسألني عن حالي وعيناها مُعلقتان بي بتوجسٍ. قلقة وخائفة علي، تطل لتتأكد أنني لا أسعل وبلا حرارة. تقول لي إنها منعت البخور من البيت لحرمته عليها كأرملة في حدادها، وتطلب مني أن أشم العطور في غرفتي لأتأكد من أنني لم أفقد حاستي الشم والذوق العارضين الشائعين للمصابين بالفايروس.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تُغلق الباب تغلق الباب بعدما أطمئنها علي. أتأملها وهي تغلق البلب بقوة عمداً، ومن ثم تعود وتفتحه ببطء وتطل برأسها سائلة: أزعجك الباب يا أمي؟ قفلت الباب بقوة؟؟!

فأطمئنها بأن صوته كان عالياً وأؤكد لها أنني لم أفقد شيئاً من حواسي بها فيها حاسة السمع التي لم تَكُن من أعرض الكورونا على أي حال!

أُفكر بعدما تخرج أمي من غرفتي بشبهِ طمأنينة، كيف انتهى الحال بي فجأة معها وحدنا؟! كُنت على الضفة الأُخرى من العالم قبل قرابة الشهرين في عمل آخر وبيت آخر ومجتمع آخر وحياة مُختلفة تماماً! كيف انقلبت الحياة رأساً على عقب من دون سابقِ إنذار؟! كيف عدتِ فجأة ومات أبي فجأة؟! ووجدتني أتشارك البيت مع أمي لوحدنا فجأة؟!

كان من الواضحِ أن عودتي لحياتي السابقة باتت شِبه مُستحيلة. كُنت أعرف أنني ومهما كُنت أنانياً فلن أقدر على أن أِديرَ لأمي ظهري بعد هذا العُمر. لن أقدر على أن أتركها في سنواتِ عُمرها الأخيرة لتصارع شيخوختها وحيدة، خاصة وأنني دائماً ما كُنت الابن الضال الذي لطالما تخلى عنها!

لم تَكُن المُعضلة بالنسبةِ لي في أن أبقى معها، بل كانت في أنني لا أعرف حقيقة كيف أظل وسأظل معها!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنا الذي غادرت البيت في مراهقتي ولم أكن أعود إليه إلا لأيام كُل بضعةِ أعوام، أقضيها كضيف لديهم وأُغادرهم بعدها كضيف!

كان من المؤلم حقاً أنني اكتشفت فجأة أنني لا أعرف كيف أعيش مع أُمي! لا أعرف كيف أتشارك البيت والحياة مع المرأة التي جئتِ منها! كُنت لا أعرف كيف سأرسم حدودي وكيف سأحترمُ حدودها! كيف سأمنحها حقوقها وكيف سأُهذب ما أظن أنها من حقوقي وما ستظن هي بلا شك أنها تجاوزات!

ظللنا في العزل المنزلي لأربعة عشر يوماً من بعدِ وفاة والدي. اعتزل كُل واحد منا واختلى بنفسه حتى انقضت فترة العدوى. عُدن أخواتي لزيارة أمي بعدما تغيرت أوقات الحجر من الحجر التام للحجر الجزئي. تغيرت أمي كثيراً بعدما انقضت أيام العزل وبعدما اطمأنت أننا جميعاً لم نُصب بالفايروس. خففت عنها زيارات أخواتي لها كثيراً. تناوبن على المبيت عندها في أول شهرين من حدادها حتى بدأت تستعيد ابتسامتها وتغالب ذكرياتها، وإن ظلت آثار الحنين تتضح عليها بين الليلة والأُخرى ..

كُنت أُصارع وأُقاوم بداخلي فكرة هذا التغير الذي اعترى العالم باستماتة. لم أكن مستعداً لهذا الانقلاب، لتلك المستجدات وتلك الخسائر!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم تَكُن حياتي في السابق مثالية، ولم تَكُن كما كُنت أسعى لأن تكون، لكنني أعرف قيمتها جيداً الآن. أُدرك الآن أنها كانت بأوجاعها وآلامها ونواقصها تُمثل حياة كاملة، تختلف كثيراً عن شبه الحياة التي نعيشها الآن في هذا الحجر الصحي والعزل الكامل.

أُفكر: ما الذي يعنيه أن نقضيَ هذا الزمن من حيواتنا مُختبئين من عدو لا يُرى؟! كيف نخاف ونختبئ ونغلق خلفنا الأبواب من قاتل لا مرئي شفاف! بلا لون ولا شكل ولا طعم ولا صوت ولا رائحة!

أي عدو هذا الذي أصاب عشرات الملايين وفتك وما يزال يفتك بالكثيرِ منهم؟!

كانت فكرة أن يتوقفَ كُل العالم عن مُمارسةِ الحياة مُفزعة ومُهيبة! رغم أنها كانت عزاء للكثيرِ من اليائسين من الناس. كان يخفف عن الكثيرين أن يشاركهم البشر في كافة أنحاء العالم المأساة نفسها والمصير ذاته!

كانت الفكرة مرعبة بالنسبة لي! فإن كُنا جميعاً تحت وطأة الحرب نقاتل عدواً يعرفنا تماماً ونجهله كُلياً، فمن الذي سينقذنا إذاً؟! من الذي سينتشلنا من هذه الحرب غير العادلة؟! من سيقف معنا في وجهِ هذا العدو البشع الفتاك الذي لا يرحم؟! ومتى ينتهي كُل هذا؟! ماذا لو لم ينتهِ؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يبدو هذا السيناريو مثاليا لسيناريوهات النهايات. يبدو وكأننا ننجرف نحو الهاوية! مُنزلقين نحو نهاية العالم بقوة وسرعة رغم النضال ورغم التشبث والمقاومة!

«الحلقة الأخيرة». دائماً ما كُنتِ تسمين النهايات بالحلقةِ الأخيرة! هل تكون الأشهر القادمة هي الحلقة الأخيرة للحياة وللعالم؟! أنتساقط الإنسان تلو الآخر حتى تزول البشرية ولا يبقى منهم إلا تاريخ شهدته الطبيعة ونسته بعد حين؟!

أتساءل لم طفح كيل الأرض من البشر فجأة؟!

لطالما ارتكب الإنسان الكثير من الخطايا في حقِ الطبيعة وحق الأرض التي لطالما تسامحت معه وغفرت له. أتساءل ما الذي ارتكبه الإنسان الغارق بالجهل مؤخراً حتى تثور الأرض هذه الثورة؟! لم هاجت وغضبت وثارت وانتقمت بهذه القوة وهذا الحزم؟!

أُفكر فيها لو عَبرت هذه الجائحة بقُدرة ما، بمُعجزة ما، برحمة ما! كم ستتغير نظرة الإنسان إلى الحياة بعد مرورها؟!

كم سيتغير ترتيب الأولويات؟! وما هي الدروس والحكم والرسائل التي سيستنبطها الإنسان من كُل هذا الجنون والسُعار الذي اعترى العالم؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تعلمتُ أن كُل الطرق تؤدي إلى الوطن! فعندما تضيق بالإنسان الحياة، فلا ملجأ له إلا الوطن. تعلمتُ أننا مهما ابتعدنا ومهما تشعبت بنا دروب الحياة، فستفضي بنا كُل الدروب إلى الرقعةِ ذاتها وإلى الأم نفسها، الرقعة والأم التي تُسمى بكل اللغات وكل الحضارات وكل الثقافات «وطن»!

الوطن الذي فقدت نصف روحي عندما غادرته، فعشتُ بعيداً عنه بنصفِ روح حتى التقيتكِ فمثلتِ الوطن بالنسبة لي واكتملت والتأمت روحي من جديد!

لكنني خسرتهُ من جديد حالما رحلتِ، حالما خسرتكِ أنتِ!

أكملتُ حياتي ناقصة بدونِك!، عشتِ حياتي كنصفِ حياتيِ من دونكِ ودونه! لكنني عدت اليوم إليه، استعادني أو استعدته، غالباً أنا من استعاده لأنني المحتاج إليه كعادتي وهو المُحسن عليَّ كعادته.

عدت إليه بدونِكِ هذه المرة. كُنت دائماً ما أظن إنكِ ستكونين معي حينما أعود إليه، وأنك ستكونين حتماً سبب عودتي، لكن ما حدث فعلاً كان السيناريو الذي لم أكتبه أبداً ولم أتخيله يوماً.

لم تَكُن العودة صعبة فقط لمُجرد أنها كانت بدونِك، بل لأنني لم أختر توقيتها ولم أكن مستعداً لها. يُخيل إليَّ أحياناً أن القدر من دفعني هذه

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الدفعة المفاجئة، لأنني لم أكن لأجرؤ على العودةِ بدونِك! كُنت سأسوف وأماطل وأؤجل كديدن السنوات العشرين الماضية. كُنت سأقضي العُمر كله في تأجيل وفي تسويف حتى ينقضي العُمر أو تستحيل عليَّ العودة.

لو تدرين لكم هي غريبة الرياض بدونِ أن تُشاركيني الأيام فيها! لا أعرف لم كُنت أشعر دائماً حينما كُنت أجيء إليها في زياراتي السريعة لعائلتي أنني سألتقيكِ في أي لحظة، سأُصادفكِ في كُل مكان؟! وكأن مساحة الرياض الكُلية لا تتجاوز المائة متر!

أدور أحياناً حول بيت أهلكِ كلص وقح أو مراهقٍ عاشق. أبتسم وأنا أتذكر الأيام التي كُنت أدور فيها بسيارتي حوله، لأسرق لحظة أراكِ تطلين عليَّ فيها.

أصبحتُ أجلس أحياناً على المقعد في الحديقة المقابلة للبيت أو أُمارس رياضة المشي فيها، بانتظارِ أن تجيئي إلى البيت أو أن تخرجي منه.

رأيت في أحد المرات إحدى أختيكِ تخرجُ بسيارتها من بابِ الجراج. شعرتُ وأنا أرى الباب ينفتح بأن قلبي يلهث. كُنت أمشي في الحديقة حينما رأيت الباب يرتفع. وقفتُ وخلعت الساعات من أُذني ورفعت نظارتي على رأسي لتميزيني ولأُميزكِ، لكن الفتاة التي كانت تقود السيارة الحمراء الرياضية حاسرة الرأس، بكامتها الملونة وبشعر قصير وناعم. لا تشبه ملامحك ولا سلوكك.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أنتِ لا تفردين شعرك ولا تقصرينه مها تغيرتِ ومهما كانت الأسباب. كما أعرف وأذكر كم كُنتِ تخافين في مُراهقتكِ من السيارات السريعة، فكيف بحالكِ بعدما أصبحتِ أُمًّا؟!

ابتسمتُ حينما رأيت أُختك. يبدو أنها بتيل، أصغر شقيقتيكِ. من المفترض أنها الآن في الثالثة أو الرابعة والعشرين، في العُمر الذي كُنت فيه حينما تقدمتُ لخطبتك! إلهي! أمن المعقول إنكِ كُنت صغيرة لهذه الدرجة حينذاك!

قد يبدو جنونياً أن أنتظركِ أمام البيت متوقعاً مصادفتكِ! لم أكن قلقاً من أن يراني والدكِ أو أحد شقيقيكِ. لم يَكُن ليتذكرني أحد منهم بعد هذا العُمر على أي حال، فقد كُنت بالنسبة لوالدكِ خاطباً كأيِ خاطب، ولا شك عندي من : أنه قد خطبكِ الكثيرون من بعدي، ولا أظن أن والدكِ سيتذكر كُل من دخل بيته خاطباً!

كانت خطتي باختصار هو أن أُصادفكِ! كانت الخطة تنتهي عند هذه المُصادفة الأمنية، المُصادفة الحلم!

لم أكن أعرف ماذا سأفعل لو صادفتكِ؟! لم أخطط لما سأقوله أو ما سأفعله! كانت كُل تفاصيل خطتي هو أن أُصادفكِ فقط! ما سيلى ذلك كُنت على يقينٍ من أنني قادر على ارتجاله كعادتي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتعرفين؟! بقدر ما كُنت أتمنى مصادفتكِ بقدرِ ما كُنت أخشاها! دائماً ما كُنت أتخيل تلك اللحظة التي تقفين بها أمامي! اللحظة التي نتواجه فيها! اللحظة التي نتبادل بها العتب! يغلبني الدمع فأنفض خيالي، ولا أقدر على أن أستكمله أو أن أتصور ما قد يأتي بعده!

ماذا عساي أن أقول حينما ألتقيكِ؟! ماذا عساي أن أفعل وأنتِ امرأة متزوجة؟! لم أُطاردكِ وأنتِ زوجة رجُل آخر لن تخونيه يوماً ولن تتركيه لأجل رجُل حتى لو كُنت أنا هذا الرجل؟! لم أُطاردكِ وأنا نفسي لا أرضى بأن تكوني هذه المرأة، ولا أقبل أن تهاني بهذا التوقع والافتراض؟!

صدقيني، أُحبكِ جداً وأحترمكِ كثيراً! ولا أقبل أن تخدش قداسة زواجكِ بسببي! لا أقبل ولن أفعل وأعرف إنكِ لن به ذلك مهما كانت الأسباب، لكنني لستُ بقادرٍ على تفعلي تلك اللحظة التي أعيش لأجلها، المصادفة أن أتخلى عن الحلم!

ربما لأكتفي بها، فقط بها! ربما تنتهي كُل الحكاية بالنسبة لي بمُجردِ أن أصادفكِ! ربما تُنتزعين من قلبي وتستأصلين من عقلي حالما ألتقيكِ فتنتهي كُل الحكاية!

ربما أنا بحاجة لذلك الوداع! قد تكون هذه هي المُعضلة وسبب كُل المشاعر والأحلام والأفكار والمشاريع العالقة! قد يكون السبب هو

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

رحيلك بدونِ وداع! رُبما كُل ما أحتاجه هو أن أودعكِ لأدعك تمضين ولأمضي!

أكان من الصعبَ عليك أن تودعيني؟! أُفكر دائماً لمَ لم تودعيني؟! لمَ لم تُجري ذلك النقاش القاتم والحديث الحالك والمُر لتنتهي مني وأنتهي منك إلى الأبد؟! لم غبتِ هذا الغياب السريالي الذي لا تشبهينه ولا يُشبهك ولا يليق بحكايتنا؟!

دائماً ما كُنت مُباشرة وواضحة وتشبهين الحضور، فلمَ اختلفتِ وتغيرتِ وتبدلتِ واختلفتِ في الغياب؟!

أستمع إلى إحدى المقطوعات بعزف خالد وحيد في طريقي إلى المنزل. تدمع عيني بدمع حار. أشعر أنني أسترجع الرياض القديمة التي أعرفها حينما أستمع إليه. يأخذني بعيداً إلى زمن بريء بعيد، حيثُ مراهقتي الساذجة، قبل أن تشوهني الحياة وقبل أن يغيرني الرحيل.

الزمن القديم الذي كُنت فيه متصافياً مع نفسي ومُتصالحاً مع والدي. حينما كانت أخطائي صغيرة وخطاياي تافهة.. وأوجاعي بسيطة!

لم أكن أتوقع أن تُخلّفَ وفاة والدي بداخلي كُل هذا الألم وكل هذا الفراغ وكل هذه الذكرى! كُل هذا الإحساس بالذنب وبالضآلة وبالتقصير! كُل هذا الخوف الذي لا أعرف مصدره ولا أفهم أسبابه!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف لم أصبحتُ خائفاً فجأة؟! لم نكصت فجأة وشعرتُ باليتم كطفل صغير؟!

عشتُ نصف حياتي بعيداً عن والدي وخارج حدود حمايته، فلم أشتاق إليه الآن لهذا الحد وكأنني كُنت لصيقاً به؟! لم أشعر أنني ضعيف من دونه من بعدِ وفاته رغم أنني لم أطلب حمايته في حياته من بعد رحيلي واغترابي؟!

كُنت أعرف أنني سأندم يوماً على تقصيري وغيابي، لكنني لم أتوقع أن يكون هذا الألم كالجمرة العالقة في حلقي! لم أكن أتخيل حجم النار التي تستعر بداخلِ صدري ككُتلة من بركان، بدونِ أن يقدر على أن يُطفئها شيء أو أن يخفف من حرارتها أي شيء!

لو يقدر الإنسان على أن يستأصل ذلك الإحساس غير الملموس والمُسمى بالضمير، لاستطاع أن يتخطى الكثير من الذكريات، ولاستطاع أن يبدأ حياة جديدة لا تكبله فيها قيود الماضي ولا تتراءى له فيها وجوه الماضين في حياتهِ كأشباح مكسورة ومظلومة وتَعِسة!

أتكونين عالقة في حياتي لهذا السبب؟! أيكون ضميري هو من يأبى أن يفلتكِ بعد كُل ما فعلته بك وما تسببتِ لك به وما آذيتكِ فيه؟! أم يُعاقبني الله بذكراكِ مثلما يُعاقبني الآن بذكرى والدي جزاء لما فعلته بكما؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كل ما أحتاج له الآن هو الانعتاق والخلاص! أن أتخلص منكما أو أن أتخلصَ من الذنب الذي يعتريني تجاهكما! فأمضي بلا حمل يُثقل كاهلي وروحي وأرتاح!

أهي الكارما؟! أفعالي في الماضي التي انعكست ظلالها على حاضري ومستقبلي فأصبح كُل ما فيها يعذبني بدونِ أية حلول ممكنة ولا آمال قريبة؟!

أذكر إحدى شجاراتنا في الأشهر الأخيرة من علاقتنا. أذكر ملامحكِ وأنتِ تحاولين التماسك، غير قادرة على مغالبة دموعك التي كانت تنهمر بقهر لم تتمكني من إخفائه. قُلتِ وأنتِ تشيرين بيديك بعصبية كعادتكِ حينما تنفعلين: «كُنت ألومكِ في السابق على تصرفاتك المُختلة وغير المنطقية، لكنني لا ألومك الآن! الآن أفهم إنكِ غير طبيعي! أنت مصاص دماء عاطفي باختصار! مريض! مُعتل! نرسيسوس!

أذكر كيف انفجرت ضحكاً حينما نطقتِ بنرسيسوس فجأة! ضحكت وضحكت حتى ابتسمتِ وضحكتِ وتلاشى غضبك!

أذكر إنكِ غيرتِ اسمي في هاتفكِ لـ «نرسيسوس». رغم أن نرسيسوس قد أنقذني من غضبكِ ذلك اليوم وصالح ما بيننا، إلا أنني أعتقد الآن إنه من المِمكن أن أكون حقاً كنرسيسوس الأسطورة الملعونة! ربما فعلا أنا نرجسي بشكل من الأشكال! ربما تكون هذه العقدة التي حالت

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

بيني هي وبينكِ! ربما أنا مريض فعلاً! فهل تتخلين عني لسبب خارج عن إرادتي؟!

كُنت أشعر وكأن العالم قد اقترب من قيامته. لم يَكُن يبدو للفايروس أي نهاية قريبة. لا أخبار مُبشرة ولا لقاحات مُكتشفة ولا الوباء ينحسر، لا بفعل الصيفِ ولا الشتاء!

كانت الانهيارات الاقتصادية تتوالى في كافةِ أنحاء العالم. نسبة البطالة في ارتفاع مرعب. نسبة الجرائم في ازدياد. خارطة الفقر تتسع. الأوضاع الأمنية في انفلات. الطواقم الطبية تتساقط. تزداد أعداد الخسائر بالأرواح. ورغم ذلك فقد بدأت تخفف الاحترازات في منتصف شهر يونيو تمهيداً للحياة الجديدة التي لم يَعُد بوسعنا إلا أن نتكيف وأن نتعايش معها.

أُتابع تقارير الأخبار وأقرأ معظم الدراسات الجديدة، وكل شيء يؤكد ويُشير أن العالم لن يعود كما كان!

تبدو الفكرة سخيفة جداً! مُضحكة! غير منطقية ولا معقولة! كيف تتغير طبيعة الحياة بلحظة؟! كيف يُصاب رجُل بالصين بفايروس فأعود بسببه من فانكوفر ويموت والدي في الرياض ويتغير شكل الحياة على الكُرة الأرضية بمن فيها؟!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت أشعر بالغضبِ الشديد! لا لأنني فقدت حياتي السابقة كلها، ولا لأنني خسرتُ والدي في هذه المعركة غير الشريفة وغير العادلة مع المرض، بل لأن الغضب دائماً ما يكون هو ردة فعلي والترجمة الدائمة والوحيدة لمشاعري عند الفقد والخوف والحزن واليأس، وقد كانت تعتمل في صدري كُل هذه المشاعر في الوقتِ نفسه!

لم يَكُن في الخارج ما يستحق الخروج من أجله. كُنت كمن أصيب بمُتلازمة الكوخ أثناء الحجر، فبات الخارج مجهولاً ومقلقاً، وفقدت كُل الإغراءات التي كانت تدفعني لاستكشافه والتعرف عليه!

حاولتُ أن أُغادر تلك الصومعة التي لم تَكُن تشبهني على أي حال. قررت أن أبحث في الخارجِ عما يُلهيني وعما يشغل عقلي به، ولأن أُغادر دائرة التفكير بكِ وبه!

لم يَعُد في الخارج ما يُثير اهتمامي، وكأن الحجر الصحي قد أصابني بلعنة، فقررتُ أن أبحث عن عمل أنشغل به عن ذكرياتي وقلقي ومخاوفي وضجري.

لم يَكُن من الصعبِ على رجُل مثلي وبخبرتي ومؤهلاتي أن يحصل على عمل في أي مكانٍ بالعالم، خاصة في بلد يعنى بالمؤهلات العلمية كبلدي، لكنني كُنت الرجل المُناسب في الوقت والزمنِ غير المناسب! وكأننا لم نكن في العالم الحقيقي في تلك الفترة! كنا نبدو في عالم آخر

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

! يُشبه العوالم الافتراضية! عالم موازٍ آخراً! كان التوظيف مُعلقاً، وقطاع الأعمال الخاصة شبه متوقف، وقد كانت عملية الحصول على عمل جديد في تلك الفترة من الأمور شبه المستحيلة، لكنني كُنت مُصراً على أن أعمل حتى لو تطوعت في أيةِ جهة وبأي منصب. ورغم أنني لم أكن ميالاً للأعمال التطوعية، إلا أنني كُنت مضطراً لأن أُقدم عليها خاصة في مثل هذه الظروف. تقدمت بطلبات عمل إلكترونية على كُل الجهات والمؤسسات الحكومية والخاصة وحتى التطوعية.

أمن المعقول أن يجمعني القدر بك مُجدداً؟! أن تقع تلك الصدفة الحُلم في مقر عملك؟!

الحقيقة أنني كُنت يائساً لدرجةِ أنني لم أعول كثيراً على مؤهلاتي ولا خبرتي. كُنت أعرف أن البحث عن فرصة عمل في مثل هذه الظروف كالبحث عن إبرة في كومة قش. تآمرت الظروف والأحداث والفيروسات هذه المرة علي، لكنني قاومت ولم أستسلم، لأنني لم أملك حينما إلا المقاومة! استيقظ حظي فجأة! كان هناك تسرب في بعض الجهات الخاصة نتيجة لمغادرة وإجلاء بعض الوافدين لبلدانهم أثناء الجائحة. حصلت على الوظيفة المنشودة وأصبح في حياتي مجدداً ما أستيقظ لأجله. لم يَكُن استيقاظاً سعيداً ولا حماسياً، لكنه كان كافياً في ظل تلك الخسائر والظروف غير المسبوقة.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أصبح لي بيت ووظيفة، وأصبحتُ مسئولاً عن أمي وكبير العائلة فجأة. تفتحت في وجهي أبواب كثيرة لعوالمَ جديدة ومُختلفة، وأُغلق في وجهي نهائياً باب العودة!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

انتقلتُ للعيش في أحد الملاحق في بيت العائلة. كان من الصعب عليَّ أن أغادرَ البيت بعدما أصبحت أمي وحيدة فيه، كما كان من الصعب عليَّ أيضاً أن أقيم بداخلِ البيت بإحدى الغرف بعد عشرين عاماً من الاستقلالية.

كان الملحق أقرب ما يكون بالاستديو الصغير، كشقة صغيرة مُستقلة مُلحقة بحديقة البيت الواسعة، ارتحتُ قليلاً بعدما انتقلتُ إليها. كُنت أحاول أن أسدد وأقارب، وأن أختار الحل المحايد والمُناسب لكل الأطراف.

قد لا يتخيل أحد كم من الصادم أن يتحمل رجُل في منتصفِ أربعينياته المسئوليات فجأة بعد عُمر طويل من الحُرية التامة والكاملة! كُنت كمن قيد وزج بالسجن فجأة بلا جريمة ولا سابق إنذار! كمن فتح عينيه في أحد الصباحات وقد وجد نفسه أباً لأربعةِ أطفال! التجربة التي لم يسبق لي المرور بها ولا التدرج فيها!

حاولت أن أُخفي وأن أُداري ضيقي من تلك العودة الاضطرارية، لكن الحقيقة كانت كالزيت تطفو كما يقول المثل. كان هذا واقعي الذي لا مناص منه، لا مهرب ولا مفر ولا عودة!

حاولت أن أُعوض الغياب الطويل، أن أواسي أُمي في فقدها الكبير والمفاجئ، وأن أعرض عليها السنوات التي كبرتُ وشبتُ فيها بعيداً

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

عنها. كُنت أعرف أنها وجدت في بقائي عزاء عظيماً عن فقدها لوالدي، وأن وجودي في البيت معها سيُخفف حتماً من خسارتها الكبيرة. كُنت مديناً لها بذلك، ومديناً لنفسي أيضاً. نفسي التي كُنت أدرك أنها ستندم كثيراً لو غادرتني أمي يوماً بدونِ أن أُشاركها الحياة في سنواتها الأخيرة! أرغمني رحيل أبي على أن أفهم معنى أن يخسر المرء أحد والديه وهو غائب عنه أو مقصر بحقه. حتى وإن لم يكونا على وفاق، ومهما كانت الخلافات، فحينما يرحل والداك، يعود كوالدك بدونِ أيةِ تحفظات ولا خلافات ولا عتب ولا ضغائن!

تتلاشى كُل عيوبه ومساوئه، كُل القسوة وكل الذكريات المؤلمة وكل اللحظات المرة، ولا تذكر إلا اللحظات التي كُنت طفلاً معه فيها، وبالوقتِ الذي شعرت أنه أحن عليك وأُحبكِ فيه بامتدادِ سنوات عُمرك.

والدي لم يَكُن أباً سيئاً أبداً. كُل ما في الأمر أنني أخطأت فعاقبني بالنبذ، وأفهم اليوم أنها لم تَكُن الطريقة المُناسبة ليُعاقب بها مراهق بشخصيتي التي كُنت عليها. وبما أن كلينا كان عزيز نفس، فلا أنا الذي قدرت على أن أعودُ فأعتذر ولا الذي سامحني بلا اعتذار. تجاهلنا ما حدث ولم نتحدث فيه طوال عقدين. فعلق العُتاب والاعتذار والتسامح والتبرير والتفسير كالشوكة في حلوقنا، وكبرت الفجوة بيننا وظللنا طوال السنوات الطويلة الماضية على خلافِ بلا خلاف!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُفكر اليوم فيها لو أننا تحدثنا! لو أننا فقط تحدثنا لما عشتُ وعاش كُل هذا! لو أنني اعتذرت لما عشتُ مغترباً لعشرين عاماً، ولما عاش وعاشت أمي بلا ذنب بدونِي خلالها!

لو أنني تجرأت وتنازلت وأذعنت وخضعت تلك الساعة، فعاتبني وأنبني ووبخني وسامحني وانقضى الخلاف ككل خلافات الآباء مع الأبناء، لما كُنت اليوم أراوح المكان، أشيح بوجهي عن الندم، فيُكشر في وجهي تأنيب الضمير على الجهة الأخيرة!

عدت للصلاة بعدما مضى والدي. عدت إليها بعد فترة طويلة من الانقطاع . كُنت أُصلي طوال السنوات الماضية كُل جمعة صلاة الجمعة، لعلها تبقى الرابط الذي لا ينقطع بيني وبين الله! أُصلي في الأعياد وصلاة الجمعة وحين الخوف وعند اليأس! ورغم ذلك التذبذب والتقصير، لم أمد يدي يوماً باتجاه الله إلا وقد شملني برحمتهِ ولطفه وجبره وعطفه!

وجدتني أعود إليه كعادتي حينما لا أجد أحدا أعود إليه، ووجدتهُ رحيماً كعادته لم يُغلق في وجهي أي باب!

كُنت أُناجي الله في صلاتي، وأناجي والدي بعد الصلاة. كُنت أشعر بروحه بروحه قريبة، مثلما كُنت أشعرُ بقربِ الله عندما أدعوه.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

قلت لوالدي كُل ما أردت قوله له في حياته. كُل الكلمات التي لطالما علقت في حلقي. لم يَكُن الأمر صعباً عليَّ كما كُنت أتخيل ومثل ما كُنت أظن! شعرت بشيءٍ من الطمأنينة والسكينة والسلام والراحة، وإن ظل في نفسي الكثير من الندم.

ليتني حدثته حين ذاك! ليتني لم أنتظر اختطاف الموت له، وطلبت منه السماح قبل الرحيل!

لا أعرف كيف وثقت بالأقدار؟! كيف تشاغلت عن الموت وعما قد يخلفه وراءه في أي لحظة رغم معرفتي وإدراكي أنه واقع لا محالة؟!

لا أعرف لمَ كُنت أنتظر من والدي أن يحل المسألة! لا أعرف لمَ لم أقدم ولمَ لم أُبادر؟!

خسرتُكِ وخسرتهُ بالتسويفِ وبالتأجيل وبالانتظار. سلب مني الكبرياء أحب الناس إلى وأعز وأغلى من كان في حياتي ومن كُنت أعرف.

كُنت أطلب الله في صلاتي أن يُعيدكِ إليَّ بأي طريقة يختارها! بأي صفة وأي طريقة! ما يهمني هو أن يُعيدكِ إلي! أن يرحمني من هذا الحرمان الذي ضقتُ به ولم أعد أحتمله، وألا أقضي ما تبقى لي من الحياة مثلما قضيت العشر سنوات الماضية بعيداً عنكِ. طلبتُ منه استرجاعكِ سواء كان في عودتكِ خير أم شر لي. لم يَكُن يهمني ما

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الذي ستجنيه عليَّ عودتك! كُل ما ما كان يهمني هو أن تعودي! أن تعودي فأُحبكِ أكثر مما أحببتكِ، أو أكرهكِ فأمضي بدونِ أن ألتفتَ نحوك!

* * *

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

شعرتُ بمعدتي تضطرب في أول يوم باشرتِ به العمل الجديد. لم أنم جيداً، أو لم أنم أصلا ليلتها! كانت هذه المرة الأولى التي أشعر بها بالارتباك والتوتر وشيء من الخوف قبل الإقدام على تجربة جديدة. دائماً ما كانت تأخذني الحراسة للخوض بأي تحدٍ ولأي مغامرة!

تذكرتُ أصدقائي الذين كانوا يلقبونني بـ «عزيز قلب الأسد»، ورغم أنني كُنت أفهم تماماً أنهم يقصدون القسوة والقدرة على التخلي أحياناً، إلا أنني لطالما كُنت فخوراً بجسارتي وقدرتي على كسر القوالب ومواجهة المصاعب.

ربما قلقت هذه المرة اليتيمة لأنني شعرت بأنني بدأت أحط رِحالي فعلياً. بدأت أبني لي عُشاً ومُستقراً في الوقت والظروف غير المخطط لها!

تذكرت القلق الذي كان ينتابكِ في بدايةِ كُل عام دراسي جديد. تتوترين كطفلة صغيرة، تدخل المدرسة للمرة الأولى في حياتها، فألومكِ على ذلك القلق. كُنتِ تنفعلين قائلة: أنا لست مثلك! أنا أختلف عنكِ!

- ولمَ لا تكونين مثلي؟!

- ولمَ أكون مثلك؟!

- حتى ترتاحي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- عزيز! أنت لا تخاف من شيء ولا على شيء لأنك لا تملك ما تخشى خسارته! بينها أعول أنا على الكثير من الأشياء وخسارتها تعني لي الكثير!

استفزني قولكِ كثيراً يومذاك! سخرتُ كثيراً من مخاوفكِ المبالغ بها ومن قلقكِ شبه الدائم، لكنني كُنت أعرف إنكِ أصبت فيما قُلته عني، وبأنني لم أكن أملك شيئاً لأخشى خسارته!

أتضاعفت مخاوفكِ وتضخمت بفعل الأمومة؟! أم تغيرت طريقتكِ في النظر للحياة ومن فيها مثلما تغيرت فيكِ الكثير من الأمور والأشياء؟!

دائماً ما كُنت أتخيلكِ كأم قلقة، تُبالغ في رعاية صغارها وفي حمايتهم، تنجب القليل من الأطفال طمعاً في جودة الحياة التي سيعيشونها. أرقب صور صغيريكِ التي تنشرينها على وسائل التواصل والتي دائماً ما تكون بلا ملامح ظاهرة، وأعرف أن امرأة مثلكِ ومهما كانت فخورة بأطفالها، فمن المستحيل أن تُجازف بخصوصيتهم أو بمساحة حريتهم التي لم تَكُن لتعتدي عليها حتى وإن كانت أمهم.

لاحظتُ من خلالِ مُتابعتي لحساباتكِ على وسائل التواصل الاجتماعي إنكِ كُنتِ من القلائل الذين انتابتهم المخاوف منذ ظهور الحالات الأولى شرق العالم في بداية العام، ومن قبل أن يمتد الفايروس وقبل أن يتحول إلى وباء ومن ثم إلى جائحة.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت أبتسم وأنا أقرأ تغريداتك المرعوبة. لم تتغير بك هذه الصفة بعد! ما زالت ترعبكِ الأمراض والكوارث التي تحدث في أي ضفة من ضفافِ العالمِ ومهما كانت المسافات التي تفصلك عنها!

دائماً ما كُنتِ معنية بما يحدث في أرجاء العالم من أحداث. تُبكيكِ حوادث الإرهاب أينما كانت وأياً كان المقصود بها، باختلافِ الأديان والأعراق والطوائف. تبكين كُل لاجئ في أي بقعةٍ على وجهِ الأرض. توجعكِ المجاعات، ويمزقكِ كُل حادث اغتصاب، وتتألمين لكُلِ فقير ومهموم ومغموم ومُحتاج.

أتخيل أن مشاعركِ تجاه الآخرين قد تضخمت من بعدِ أمومتكِ، وأن إحساسكِ بهم يزداد عُمقاً كُلما تقدم بكِ العُمر وكلما رأيتِ في العالم من أهوال.

أفهمكِ كثيراً. أفهم كيف تفكرين ولم تُفكرين بهذه الطريقة. لكنك لم تفهميني فيما يبدو! لم تفهمي أسبابي ولا مقاصدي ولا مآربي، ولا قدرة لي على لومكِ على ذلك، فأنا نفسي يستعصي عليَّ غالباً فهم نفسي في معظم الأحوال!

لو تدرين لكم أشتاق للخوف الناعم في عينيكِ! في نظراتكِ المتشبثة بملامحي حينما تخافين وكأنك تبحثين بي عمَّا يطمئنكِ وعمّا يبث بكِ السكينة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتدرين؟! أصبحتُ اليوم أخاف كثيراً! رغم أنه لا يوجد في حياتي الكثير لأخاف عليه حتى الآن، لكنني أصبحتُ أخاف! خفتُ من هذا الإعصار الذي باغتني ولف حياتي الفوضى التي لم أعد أعرف نفسي بها ولا أعرف فجأة! من إلى أين سأصل فيها!

ربما تغيرتُ كثيراً، أكثر بكثيرٍ مما ظننتْ وأكثر بكثيرٍ مما قد تتخيلين!

ربما تجدين بي الآن شيئاً مما تمنيتِ أن يكون بي في الماضي. ربما تأخرتُ كثيراً في التغير، التغير الذي أعترف أنني لم أسعَ إليه لأنك لطالما أشعرتني بالقبول رغم اختلافي عنكِ وبغضكِ لبعض صفاتي والكثير من طباعي!

أتأمل أحياناً شقيقي الأصغر والوحيد. أبتسم لمدى الاختلاف الكبير والواضح بيننا، وكأننا ولدنا في بيتين مُختلفتين وفي بيئتين مُختلفتين تماماً، رغم تشابه ملامحنا وأحجام أجسادنا.

فآسَف على العُمر الذي ضاع بدونِ أن أشاهد وليدا يكبر فيه. أُفكر في كُل الصعوبات والمشاكل التي مر بها في طفولتهِ وفي مُراهقتهِ بدونِ أن أكون موجوداً بقربهِ فيها، بدونِ أن أرشده أو أحميه ككل الأشقاء، أو حتى بدونِ أن أعرفه ما كان ينبغي عليَّ أن أعرفه!

أُفكر في هذا الرابط الغريب الذي يربط بيننا، بالدم الذي يجمعنا والذي يجعلني أُحبه كثيراً وأخاف عليه جداً، والذي يجعلني أرقب شخصيته

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

وما أصبح عليه بفخر لا حد له ولا نهاية، بدونِ أن يكون لي أي تأثير فيه أو حتى حضور.

كبر وليد فجأة! راهق وشب وتزوج وأنجب سريعاً بينها كُنت بعيداً جداً، أعبث وأتسلى وأعود إلى نفس المكان الذي كُنت فيه وإلى نفس الخانة التي لطالما شغلتها في الحياة.

حمل وليد المسئوليات وتحمل الالتزامات التي كان ينبغي عليَّ حملها. سد خانته واضطر لأن يسد خانتي أيضاً طوال العُمر الماضي، لاعباً دوره ودوري باقتدار وبطيب خاطر.

كُنت دائما ما أشعر بالضآلة أمام وليد وتفوقه عليَّ بكل شيء رغم العُمر الكبير الذي يصغرني فيه. كُنت صغيراً أمام قدرتهِ على التحمل، وبحس انتمائهِ العظيم وبرغبته باحتواءِ الجميع وتنازلاته وإيثاره وقدرته على التسديد والمُقاربة.

كُنت على النقيضِ منه تماماً. متطرفاً بمشاعري وحاداً بأفكاري، مُتعصباً لرغباتي بلا مُشاركة ولا تفهم ولا مرونة!

دائماً ما كُنت أعزو ذلك لطبيعتي وفطرتي وجيناتي التي ورثتها عن والدي فيها يبدو! لكنني أفهم اليوم أنها كانت صور من صور الخوف والغضب اللذين كانا يعترياني تجاه نفسي والآخرين والعائلة والماضي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أكن أنفر منهم مثلما كُنت أشعر وأظن، بل كُنت غاضباً لدرجةٍ لم أفهمها ولم يفهموها، فظللت أسير غضبي غير المفهوم وغير الواضح، لا أنا بالذي تخلصت منه ولا أنا بالذي قدرت على أن أنتهي منهم!

لم يَكُن وليد متسامحاً ولا بسيطاً ولا ساذجاً. كان يُبدي احترامه لي دائها كأخٍ كبير له. لا يتطرق إلى عيوبي ولا إلى تقصيري ولا إلى مساوئي، لكنه بالمقابل لا يقبل أن يتغافلَ أو أن يتجاهلَ أحد المسئولية الكبيرة التي تحملها بسبب غيابي، وقد كان هذا عادلاً، عادلاً جداً.

كُنت دائماً ما أبين له امتناني لذلك الجميل، لذا كُنت أُشير دائماً في كُل مجلس كبيرا كان أو صغيرا، حتى في المجلس الذي لا يضم سواي وأمي وأخواتي، إلى كُل ما بذله وليد وما يبذله من أجلِ العائلة. أُبدي تقديري وامتناني واحترامي لتضحياته والتزاماته وكل ما قام به في حياة والدي ومن بعدِ وفاته.

لكنني ورغم الحُب الكبير والصافي الذي كُنت أحمله لوليد، لم تجمعنا يوماً جلسة حميمة كالتي تجمع بين الأشقاء أو حتى بين أقرب الأصدقاء. دائماً ما كُنت أشعر بذلك الحاجز الرسمي بيننا كغريبين مُجاملين رغم طيب النوايا وصدق المشاعر.

كُنت أعرف أن الزمن وحده هو الحل الذي بإمكاني أن أعول عليه، فمثلما باعد بيننا الزمن، فهو وحده القادر على أن يقارب بيني وبينه.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ورغم إيماني بأن الزمن لا يؤتمن، إلا أنني اتكأت وعولت كثيراً على الدم الذي يجمع بيننا وعلى حُبي الأخوي له وإن لم أكن قادراً ولا ماهراً في التعبيرِ عنه.

أُفكر دائماً كيف تختلف الأخوة التي تربط بين الأخ بأخواته عمَّا تربط الأخ بأخوته الذكور؟! ولا أعرف إن كانت فعلياً كُل الروابط بهذا الشكل أم أننا العائلة المُستثناة بأشكال مختلفة للعلاقات التي تربط بيننا!

لم أشعر يوماً أنني مُضطر للتعبير أو لأن أبذل أي مجهود تجاه أخواتي ليشعرن أو ليفهمن مدى محبتي لهن رغم بُعدي الطويل وغيابي شبه الدائم. دائماً ما كُن المُبادرات، يودعنني بحميمية ويستقبلنني بالحميمية نفسها. كُن يستقبلنني وكأنني لم أغب أبداً رغم أنني لم أُشارك معظمهن لا أوقات الحُزن ولا مُناسبات الفرح، إلا أنني لم أشعر يوماً أنني غريب عنهن، ولم أشعر يوماً أنني مُضطر لأن أُفسر أو أبرر لأي واحدة منهن أسباب غيابي. كُنت مقبولا لديهن بكل الحالات. دائماً ما كُن يتطوعن بإيجاد الأعذار لي. لم تلمني أي واحدة منهن على تقصيري ولا على اختيار الابتعاد. كُنت أبتعد كشقيقهن وأعود إليهن كشقيقهن، بحفاوة كبيرة وشوق لا يوصف وبلا لوم ولا عتب!

غالباً ما كانت أمي وأخواتي مصدر أي حميمية أشعر بها في الوطن. دائماً ما كُن يمثلن ذلك الجانب الأنثوي الطيب، الغفور والمُتسامح والمُمتن لكل لحظة تجمع العائلة وتحتويها.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُفكر كثيراً لم يغمر النساء دائماً الشعور بالامتنان؟! لم يغلب مليهن الرضا؟! وكيف يتحلين غالباً بالقناعة؟! أُفكر لم يغفرن دائها؟! كيف يتسامحن؟! كيف يتجاوزن ويتخطين مهما كبر الجرم ومها عظم الذنب؟!

كُنت دائماً ما أفسر هذا بالضعف! كُنت أرى أن التنازل ضعف، وأن المغفرة ضعف وأن الرضا ضعف!

لكني أعرف اليوم أن الإنسان القادر على أن يتجاوز وأن يتنازل وأن يتسامح وأن يمتن على كُل شيء وأي شيء، هو إنسان في أقوى حالاته وأكثرها سلاماً.

مثلما كُنت أعرف وأفهم أن المرأة غالباً ما تشعر بالسلام ما لم يُقم رجُل ما الحرب بداخلها، فتعم الفوضى ويسود الخراب وتتشوه طبيعتها الطبية المُسالمة!

أحاول أن ألتقط تلك التفاصيل الصغيرة. تلك التصرفات البسيطة التي ألاحظها بشقيقاتي. يُدهشني مدى تشابه إنسانيتهن ومدى اختلافهن عني! يُدهشني حجم تعقيدي وقدر بساطتهن! يواسيني أنهن كُن عوضاً طيباً لوالديّ، وكأن الله قد عوضها بهن عني! عني أنا الذي لطالما شعرتُ أنني عبء عليها! ذلك الشعور المُر الذي لطالما دفعني لأن

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أُطيل الغياب أكثر ولأن أغضب أكثر ولأن أُسيء السلوك في الحياة أكثر وأكثر وأكثر!

يُخيل إليَّ أحياناً أن مُعظم مشاكلي كانت بسبب الغضب الكامن بأعماقي والذي كان يظهر بصور مُختلفة لا تشبهه ولا تُبرهن عليه.

أعرف اليوم أنني لو كُنت قدرت على أن أفهمَ غضبي ومخاوفي، ولو كُنت واجهتها وعالجت أسبابها، لقدرت على أن أحظى بالكثيرِ وأن أحتفظَ بالكثيرِ! أكثر بكثير مما حصلت عليه في حياتي ومما حظيت به! لكُنتِ تمكُنت من أن أخرجَ من دائرتي الغضب والخوف اللتين كُنت أتخبط بها لعقدين بلا نتيجة ولا فائدة!

حرمني الخوف والغضب منكِ. حرمني من أن أكبرَ بطمأنينةٍ وسلام، ومن أن أعيشَ حياة طبيعية بلا تراجعات ولا انسحابات ولا خيبات ولا خذلان.

أعرف أن التحجج بها لا يبدو منطقياً ولا عقلانياً، وأعرف أن والدي لم يَكُن السبب في كُل هذا رغم أنني لطالما تعاملت معه وكأنه الشماعة التي تُعلق عليها كُل الأعذار. حينما أتأمل طفولتي البعيدة جداً أجدني طفلاً غاضباً قاسياً مقارنة بأقراني وبسنوات عُمري القصيرة. ربما بدت هذه الصفات لوالدي من سماتِ القيادة والاستقلالية المُبكرة، لكنني أعرف اليوم أنني كُنت طفلاً خائفاً بشكل من الأشكال ولأسبابٍ لم

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أفهمها ولم تفهمها عائلتي حينذاك! لذا نشأت خائفاً وغاضباً وكبرتُ خائفاً وغاضباً! كُنت أزداد غضباً وهجوماً كلما زاد الخوف بداخلي! ولم أفهم يوماً أن الخوف والغضب هما انعكاسان لبعضها البعض!

اليوم أُدرك أنني لطالما عشت الحياة بمزاجية. كُنت أُمارس كُل ما يمارس فيها بأقل قدر من الشغف وبأقلِ قدر من الإخلاص. اليوم أعرف أنني لم أقدر الحياة حق تقديرها، وأنني لم آخذها يوماً على محمل الجد. لم أبذل بها أي مجهودٍ يُذكر. لم أسعَ ولم أجتهد ولم أُثابر للحصولِ على أي شيءٍ فيها. كان كُل ما يهمني هو أن أستمتع باللحظة، أن أصرف ما في جيبي فيأتيني ما في الغيب، وألا أحزن على من يرحل لأن الزمن كفيل بأن يعوضني عنه بآخر!

أعرف اليوم أن هذا كان طيشاً شديداً وأن رؤيتي لطالما كانت قاصرة! أدفع اليوم ثمنها بحسرة وندم على ما مضى من عُمري بدونِ أن أُحقق فيه شيئا أو أن أحصل فيه على شيء! لم يَكُن في رحلتي الطويلة ما يستحق أن أفتخر به سوى حصولي على الدكتوراة، والتي اجتزتها بمضض مثلما اجتزت الماجستير قبلها على مضض وبشقِ الأنفس!

أُفكر اليوم فيها لو لم أتم رسالتي؟! فيها لو عدتُ خالي الوفاض وقد كُنت فعلاً على وشك أن أعود خالياً! ما الذي كان بوسعي أن أفعل؟! وكيف كُنت لأقابل عائلتي وأواجه كُل من تركتهم وابتعدت عنهم من

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

بعد كُل هذا العُمر من الاغتراب والتحجج بالدراسة التي أنهيتها منذ فترة طويلة؟!

ينجح الإنسان أحياناً لا لأجل نفسه، بل مخافة من أحكام الناس وطمعاً برضاهم وبمن برضاهم وبمنحه الشعور بالأحقية في العيش بينهم والانتماء لهم! ورغم أنني لطالما شعرت أنني قد تحررت من هذا النوع من الخوف ومن مُداراة الآخرين ومن العيش وفقاً لرؤاهم ومقاييسهم، إلا أنني لطالما حملت على عاتقي ألا أعود إلا وقد أتممت ما يظنون أنني قد سافرت لأجله. لم أكن لأفشل في هذا! ليس في هذا أبداً!

من الصادمِ حقاً أن أواجه هذه الفكرة! من الغريبِ أن يُفكرَ رجُل حُر ومُنعتق من كُل انتهاء مثلي بهذه الطريقة! أنا الذي رحلت ومن خلفي الطوفان، لم ألتفت إلى من يغرقون في الخلفِ فيه، ولم أكترث لمصيرِ أي أحد جُرف فيه مهما كانت قرابته ومدى ارتباطه السابق بي!

لا أذكر أنني قد تدخلت يوما لا في دراسة ولا وظيفة ولا زيجة لأحد من أفراد العائلة. كُنت دائماً ما أقول لأبي حينما يستشيرني بأي شيء يخص أحد أخواتي أنها وحدها من يحق لها القرار، وما دامت لم تسأله ولم تسألني فهي لا تحتاج للمشورة لا منه ولا مني. كُنت أرفض التطوع في تقديم النصح أو الشورى لأي أحد من محيطي لأنني بطبعي لم أكن لأقبل بمشورة أحد أو بنصيحة من أحد!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت متفرجاً خارج حدود المشهد في أغلب الأوقات، أُبارك ما يُقررونه وأؤكد دعمي لما يرفضونه. أُبدي مُباركتي وإقراري لمُجردِ أن أسجل حضوري كفرد من أفراد العائلة بدونِ أن أؤثر في سيرِ حكاية أو في حسم قرار.

يبدو لي أحياناً أن هذا ما أبقى سُبل الود والمحبة بيني وبين أخواتي مُمتدة. لم أكُن ذلك الشقيق الذي يُعرقل حيواتهن ولا الشقيق الذي يعترض قرارتهن وخياراتهن. كُنت الرجل الذي يجيء ويذهب بدونِ أن يُغير أي شيء أو يؤثر في أي شيء.

أراقب «صالحاً» ابن أختي الصغير ذا الست سنوات والمُدلل لكونه الأصغر والمُحبب والمُفضل لوالدي رحمه الله كونه أصغر الأحفاد الكُثر المُسمين على اسمه. يبكي عند أمه مُتململاً من الحجر المنزلي راغباً بالخروج من البيت. أتأمله وهو يزن بإزعاج وأختي عهود تشرح له أنه لا يمكنه الخروج خوفاً من العدوى. كانت تشرح له الأسباب بسعةِ صدر تعده بأن تأخذه لكل مكان بعدما ينتهي الفايروس وهي قريباً وحينما تعود الحياة إلى الحياة - كما تأمل -!

قالت له وهي تمسح على شعره: احمد الله على النعم الكثيرة التي لديك. عندما كُنت طفلة في عُمرك لم تَكُن هناك أجهزة إلكترونية. لم تَكُن تعرض أفلام ديزني على التلفاز. لم تَكُن بيوتنا مُمتلئة بالألعاب، ولم

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يَكُن لدينا إلا مدينة ملاهٍ واحدة نخرج إليها في المُناسبات السعيدة والكبيرة فقط!

يضحك صالح الصغير ساخراً غير مُصدق لما تقوله، فتشير بيدها إليَّ وتسترسل: ألا تصدقني؟! فلتسأل خالك!

يلتفت وهو يبتسم إليَّ مشككاً بها قالته أمه: خالي عبد العزيز، ألم يَكُن لديكم تويز آر أص؟!

هززتُ رأسي نافياً: لا! حتى السينما، لم يَكُن لدينا سينما أيضاً!

وضع يديه على فمه وضحك هو وبنات أخواتي الصغيرات اللاتي كُن يلعبن حولنا..

ابتسمت وتأملت الصغيرات وصالحا وهم يتضاحكون. كُنت أُفكر في قدرة الأطفال على التكيف والتجاوز والتعايش مع ما لديهم وما يملكون. كُنت أغبطهم على كُل اللحظات الأولى المُدهشة التي سيعيشونها لاحقاً. على كُل ما سيكتشفونه، وما سيعرفونه وما سيشعرون وسيُفكرون به.

لا شك عندي من أنهم محظوظون، محظوظون جداً! ربما لو نشأت كنشأتهم لربها تغيرت الكثير من الأحداثِ والأقدار في حياتي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لكن من يدري ما تخبئه لهم أو لي الأيام! ما أعرفه جيداً هو أنه لا توجد ضمانات مع الحياة. لا يوجد تأمين حقيقي في الحياة! من يدري ما قد ينتظرهم في الحياة؟! وأي مُعاناة تنتظر كُل واحدٍ منهم وكل واحدة منهن؟! فلكل إنسان مآسيه الصغيرة والكبيرة التي تختلف عن مآسي البعض وتتشابه مع مآسي البعض..

كُنت أتأمل أولئك الأطفال الصغار وأنا أُفكر فيها ينتظرهم في هذه الحياة الكبيرة، في الأخطاء التي سيرتكبونها، والدروس التي سيتعلمون منها، والعبر التي قد لا يفهمونها. كُنت أُفكر كم من دربٍ سيتيهون عنه؟! وكم من حُبٍ سيمزقهم؟! وكم من ألم ينتظرهم؟!

كُنت أُفكر في كُل ما سيعترض حيواتهم، من شكوكٍ وشر وطيش وحُبٍ وفقد وخوف!

رغم أني كُنت أغبطهم على الحياة التي لم يعيشونها بعد، إلا أنني كُنت أدعو بداخلي أن يكون في حيواتهم الكثير من السلام الذي خسرته في رحلة الحياة، وألا يفقدوا البوصلة التي ستشير دوماً، دوماً، دوماً إلى الوطن ..

يقطع صالح أفكاري وهو يسألني: خالي عبد العزيز، هل عندك أم وأب؟

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تضحك عهود، فأبتسم له: طبعاً! ماما منيرة وبابا صالح هما أمي وأبي!

يفتح فمه بدهشة مُبحلقاً بي ويقول: لا! ليسا والديك!

- كيف أكون خالك إذاً؟!

يقول بإصرار: لا! أنت لست ابنهم!

- لماذا تظن أنني لست ابنهم؟

- لأنك لا تعيش معهم!

- لأني كُنت مسافراً!

- لكنك لست سعودياً ولا مَسلماً!

تمسك عهود بذراعه وتهزها مؤنبة إياه، أما أنا فأطرق مُبتسماً وأنا أسمعها تشرح له لُغز صلة القرابة وسر الغياب. كُنت أراقبها وأنا أُفكر، كيف سمحت للغياب أن يُجردني من أبويّ وديني ووطني؟! كيف تركته يُجردني من كُل شيء؟!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

يقول إدورد فورستر إن «علينا أن نكون على استعداد لترك الحياة التي خططنا لها لنحصل على الحياة التي تنتظرنا»، ورغم عشوائيتي في الحياة ورغم أنني عشت مُعظم حياتي بلا تخطيط ولا استعداد، إلا إنكِ كُنت من بديهياتِ مُستقبلي، ومن ركائز حياتي التي لم أتخيل أن يقوم مستقبلي بدونِها. كُنت الوتد الذي يُثبت خيمتي والعامود الذي يقيمها. كُنت الحياة التي خططت للحصولِ عليها، لكن الحياة الواقعية التي تنتظرني بالفعل لا تبدو كذلك!

تختلف الأقدار عن الخطط، وتختلف النوايا عن الواقع، والله وحده من يختار لنا بداية الطريقِ وأحداثهِ ونهايته، لحكمةٍ يعرفها ولا نفهمها كمعظم الحِكم!

بدأ المرض بالانحسار بعدما فُتحت الرياض من جديد، وبدأت فيها مرحلة التعايش مع الفايروس والاعتياد على الشكل الجديد للحياة. لا أعرف إن كان هذا يَعُد انحساراً فعلاً! فما يزال المرض موجوداً وإن تراجعت الإصابات بشكلٍ كبير، ورغم عودة الحياة بشكل شبه طبيعي ووجود بعض الأخبار عن الاقتراب من اعتماد اللقاح في بعضِ دول العالم. الخبر الأمل الذي بات الجميع يتشبثون به كوسيلة للنجاة والخلاص!

أُفكر فيها ستُفضي إليه الحياة بعد زوال المرض -إن زال-!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

في كُل الأشياء التي تغيرت أثناءه، والتي يستحيل أن تعود لما كانت عليه قبل ظهوره! أُفكر في عودتي غير المُخطط لها، وفي كُل الأشياء التي تخليتُ عنها. في خسارتي لوالدي التي لا أعرف إن كان شيئاً قادراً على أن يعوضني إياها، وفي كُل المستجدات التي طرأت على حياتي فغيرتها وغيرتني معها!

تبدو العودة للحياةِ السابقة شِبه مُستحيلة. كُنت ممن جرفهم طوفان المرض فاقتلع جذور حياتهم وأطاح بهم على ضفة بعيدة أُخرى لم يخترها ولم تختره.

أرقب الحياة وهي تتغير حولي بهدوء لم أعتده ولم يعتدني.

كُنت ضعيف القدرة وواهن الإرادة!

أُمني نفسي بالمُعجزات، وبتلك القدرة العظيمة على تغيير الأحوال فجأة في لحظة واحدة ورمشة عين!

كُنت أنتظر أن تنقلب الحياة كما انقلبت في بداية العام. أن ينتهي كُل شيء فجأة مثلها ابتدأ كُل شيء فجأة!

لكن الحياة لم تَكُن لتتغير كما أردتها أن تتغير. كُنت قد فهمت واستسلمت ووصلت إلى يقين أن الأمور لن تجري إلا كما خطط لها الله لا ما

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

خططتُ لها أنا، الإنسان الذي اكتشف فجأة أنه مُسير تماماً وضعيف وهش ككل البشر!

بدت الرياض غريبة بعد شبه العودة التي كانت واعية وحذرة لدرجة تفوق التوقعات. كانت تتعافى بسرعة لم أتوقعها ولم أعهدها، وكأنها لم تُغلق ولم تنعزل لأشهرٍ طويلة، وكأن الخوف لم يدب فيها وكأن المرض لم يجتحها!

كانت رغبة الناس بالمقاومةِ وبالحياة ظاهرة وقوية، وقد كُنت مأخوذاً بهذه المدينة القوية والحية والجسورة أمام الجائحة، وبهذا المجتمع المُتعطش للحياة، والذي تغير عليَّ كثيراً لدرجة تُثير الإعجاب والتأمل والدهشة.

حاولتُ أن أُجاري الحياة بشكلها وظروفها الجديدة، وأن أسيرَ على نفسِ الوتيرة التي يسير عليها كُل الناس. أن ألحق بالركبِ لأعرف إلى أين سيأخذنا المركب وإلى أين سأصل فيه معهم، وكأن البشر قد اجتمعوا جميعاً في سفينةٍ واحدة، لا يُعرف من سيسقط منها ومن سيموت عليها ومن سينجو فيها!

أُفكر فيها لو أنقلب المركب علينا جميعاً! لو غرقنا كُلنا في نفس اللحظة وانتهينا كنهايات أفلام الخيال العلمي ! لو انتهينا كُلنا وأسدل ستار الحياة بصمت وحياد بلا تصفيق ولا إعجاب ولا استهجان!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كم ليكون الموت الجماعي علينا أخف وطأة؟! كم ليُريحنا أن نمرَ جميعاً بنفس النهاية وذات المصير؟!

يخاف الإنسان أن يموت خوفاً على من يخلفهم بعده، ويخاف أن يموت أحد أحبائه خوفاً مما سيُخلفه فقده فيه!

يتألم الإنسان بسبب الموت سواء أكان فاقداً أو مفقوداً! ورغم أنني لا أملك الكثير من العلاقات الحميمة لأفقد فيها أحداً أو لأن أُفقد فيها، ورغم أنني لطالما آمنت بأنني قادر على تجاوز الخسارة وتقبل الفقد، إلا أنني لا أريد أن أمر بتجربة الفقدِ مرة أُخرى، حتى وإن كُنت أعرف أنني قادر على احتمالها وعلى تخطيها بعد فترةٍ من الزمن.

الحقيقة أنني لم أعُد طوعاً ولا قسراً، لم أختر توقيت العودة ولم أُجبر عليها! سُيرت في الخطة الإلهية التي لا قدرة لأحد على تغييرها أو التأثيرِ عليها، لم أقاومها هذه المرة، استسلمت، وتمسكتُ بأملِ أن تقودني الأقدار إليكِ أو تجمعني بكِ هذه المرة!

ظننتُ أن الله يسوقني إليكِ لأن أُصلح علاقتي المعطوبة بوالدي وعلاقتي المعلقة والمخدوشة بك. ظننتُ أن في الجائحة خيرا كالكثيرِ من الأزمات، وأن في نهايةِ النفق بصيص نور كما تحكي لنا الكُتب وتصور لنا الأفلام التي لا أؤمن بها ولا أُصدقها أصلاً!

كُنت أُعلق على أبي دائما أسباب تعاستي في الأوقات الصعبة.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

بعدما رحلتِ أصبحتِ أنت الشماعة التي أُعلق عليها فشلي وبؤسي ووحدتي، وحينما بدأت الجائحة وامتدت ووصلت إلينا، أصبحت كُل الأسباب! والحقيقة أن السبب هي الحقيقي لطالما كان مُتعلقاً بي أنا! أنا الذي لم أقدر على أن أتصالح مع والدي رغم حاجتي وتوقي لذلك الصلح، ولم أسعَ لأن أسترجعك رغم أن روحي كانت مُعلقة بك ورغم أني كُنت قادراً على استرجاعك.

بقيتُ أتخبط وأدور في دائرة الغضب والكرامة لسنوات، فلا أنا بالذي غادرتها برغبتي ولا أنا بالذي سمحت لأحد بانتشالي منها!

لمثُه ولمتكِ ولمتُ الوباء الجديد! لمتُكم ثلاثتكم على فقداني السيطرة على أمور حياتي وعلى الوحشة والفقد وفوضى العودة التي وجدت نفسي عالقاً بها فجأة!

كُنت أشعر بذلك الدوار الشديد من حولي، وكأنني أقف ساخراً مُبتسماً تلك الابتسامة الكاذبة المدعية والعالم يدور من حولي بسرعة هائلة. أحاول أن أُقنع نفسي قبل أن أُقنع الناس أنني مُسيطر تماماً وممسك بزمامِ حياتي، وأن العالم مها دار واستدار فلن يقدر على أن يفقدني توازني ولن أسقط بسببه أو بسببِ أحد فيه أبداً!

أحاول أن أتماسك وأن أُلملم شتات مشاعري وأفكاري المبعثرة. لطالما حاولت أن أظل مُتماسكاً. قضيتُ نصف حياتي مُتماسكاً والنصف

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الآخر منها محاولاً التماسك لأسباب لم أفهمها! لم أفهم يوماً رغبتي ومحاولاتي للتماسك مهما كانت تُحيطني من مصائب ومهما كانت الخسائر التي أصابتني! لا أفهم لم كُنت أقاوم انهياراتي التي كانت طبيعية جداً ومفهومة جداً ومتوقعة جداً، والتي تُصيب بين الحين والآخر كُل الأسوياء والطبيعيين من البشر!

لا أعرف لم كان عليَّ أن أمثل الصلابة في كُل الأوقات؟! لم كان عليَّ أن أدعي التماسك؟! أنا لا أحب الادعاء! ولا يُغريني أو يعنيني أن أرضي الآخرين أو أن أحظى بقبولِ أحد منهم! لم أكن مثالياً ولم أسعَ يوماً لأن أكون مثالياً أو حتى لأن أدعي المثالية، لكن التماسك، هو وسيلتي في إبداء قوتي وصلابتي! هو واجهتي هو واجهتي التي ظننتُ أنها كانت تبرهن لكل من حولي أنني لم أخطئ بالرحيل ولا في البقاءِ بعيداً ولا حتى بالتخلي عنكِ!

أُفكر في ياسمين، حبيبتي في زمن بعيد، وطليقتي، وصديقتي حالياً! وحدها من لم أكن أشعر أنني مضطر للادعاء أمامها بالصلابة. لطالما كُنت حقيقياً معها، بلا تمثيل ولا ادعاء ولا تزييف.

أُتابع بالأخبار ذلك الانفجار المُرعب والمُفجع في مرفأ بيروت. تطرأ ياسمين في ذهني، تلك المرأة التي عرفتني جيداً لسنواتٍ طويلةٍ مُمتدة كحبيبة وطليقة، ومؤخراً ومن بعدِ زواجها كصديقة عُمر.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان تواصلنا قد انقطع من بعدِ عودتي إلى الرياض. أرسلت إليها حالما وصلت أنني قد عُدت أخيراً إلى أهلي. طمأنتها على أوضاعي من بعد الوباء، وطمأنتني هي على أوضاعها وصغيرها وزوجها مارك الذي تزوجته منذ أكثر أعوام. ربما تكون هذه المدة الأطول في تاريخ علاقتنا التي ننقطع فيها عن التواصل. أنا الذي انشغلت بوفاة والدي وفوضى العودة، وهي التي انشغلت بصغيرها وبتجربة الأمومة التي ما زالت تخطو خطواتها الأولى فيها!

كانت علاقتي بياسمين علاقة غريبة. دائماً ما كُنت أشعر أنها أحد أفراد عائلتي. شخص أنتمي إليه بشكل ما وينتمي إليَّ بشكل ما. يربطنا ذلك الرابط المتين والحقيقي الذي لا يُفهم ولا يوصف ولا يُسمى باسم. كان حُبي لها قد تحور عشرات المرات في مراحل علاقتنا الطويلة بأشكال كثيرة وأوجه مُختلفة وصفات عدة، لكن ذلك التحور لم يُباعد بيننا يوماً. كنا دائماً معاً مهما تغير شكل العلاقة ومهما اختلف.

من ستة لم كان في علاقتنا الكثير مما يفترض أن نخجل منه، لكننا نحكم على بعضنا يوماً، لم نخجل من الحاجةِ التي جمعتنا ولم تُقلل من احترامنا لبعضنا أبداً.

لم ينقطع تواصلنا حتى من بعد زواجنا الساذج وطلاقنا الأكثر سذاجة. دائماً ما كانت ياسمين متصالحة ومُتسامحة مع ذاتها ومع الآخرين لدرجة تُثير العجب. لم تشعر أن في زيجتنا وطلاقنا السريع الجنوني

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أية إهانة. كانت بالنسبة لها تجربة ومُغامرة كأي تجربة وأي مُغامرة أُخرى. مغامرة بدأتها ومرت فيها وانتهت منها وطوتها، لذا بقينا نلتقي ونتواصل بود لسنواتٍ طويلة. أجدها حينما أحتاجها وتجدني عندما تحتاجني، بلا شروط ولا قيود ولا متطلبات ولا التزامات.

أرسلتُ إليها بحروف إنجليزية وكلمات عربية كما نتواصل غالباً: ياسمين! طمئنيني! هل عائلتك في بيروت بخير؟!

أجابت: أهلي مناح عزيز! بس بيروت منا منيحة!

- قلبي معك ومعهم!

- دعواتك حبيبي!

- سلامي لمارك وبوساتي لجوزيف!

رميت هاتفي بجواري بضيق بعدما رأيت القلوب المفطورة والمكسورة التي بعثتها رداً على رسالتي. كانت صورة ألسنة النيران وبقايا الحُطام ما تزال أمامي مُفزعة على شاشة التلفاز المكتوم الصوت. كان من الواضحِ ورغم أنه لم يمر أكثر من ساعتين على الانفجار أن بيروت فعلاً في مأزق، وكأنها تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة هذه المرة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أخذت أُفكر لم تقع بيروت دائها؟! لم تسقط وتتعثر كُلما تمالكت نفسها واستجمعت قواها وخطت خطوتين إلى الأمام؟! كُنت أُفكر فيمن لعن بيروت؟! ولم لُعنت؟! لم تقع مدينة تواقة للحياة وبكل هذا الجمال دائماً تحت نيران الأشرار؟! فتُعذب وتشوه وتُصلب وتُحرق في كُل مرة، وتنتفض من بين النيران كعنقاء لتُعذب وتشوه وتُصلب وتُحرق مرة أُخرى!

تذكرتُ أغنية قديمة للطفلة ريمي بندلي. . ريمي بندلي. كانت دائماً ما تُغنيها ياسمين في أوقات حُزني وضعفي. كُنت أتكور وأخبئ رأسي في حضنها كطفل صغير فتلعب بشعري وهي تغني:

«ما تبكي!

أنا بحبك!

قد البحر بحبك..

قد السماء الزرقاء..

بدي منك تبقى تعمل

بالرمل بيوت..

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

حلوة مثل بيروت..

أعمل لي بيت صغير..

على سطحه علم..

والحمام يطير

ويرفرف العلم..

نرقص أنا وإياك

يقولوا أنتوا مين؟!

نقلُن مجانين

ما نِكره حَدا!

نعمل بالرمل بيوت

حلوة مثل بيروت

حلوة مثل لبناااان»!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أتذكر كيف كانت تلمع عيناها وهي ترفع يديها وتمدها باتجاهِ السماء كطفلةٍ صغيرة، ترجع برأسها للخلف وهي تنظر للأعلى وترفع صوتها بحُب وفخر «لبناااان»!

أذكر ذلك اللطف الذي كانت تغمرني به ياسمين، فيمتلئ قلبي بالحنان تجاهها. هي التي لم تسأل يوماً حضوري ولم تقاوم يومي غيابي. كانت طيبة وعطوفة معي، تحتفي بي حين الحضور، وتمنحني مساحتي الخاصة عند الخاصة عند الغياب! لم تطلب مني التزاماً ولا وفاء ولا حباً.. لم تسألني يوماً أي شيء!

أحبتني وأحببتها كثيراً، لكنه لم يَكُن يوما حب عشاق، وإن بدت علاقتنا بهذه الصورة في أوقات كثيرة، خاصة قبل مجيئك واقتحامكِ لحياتي!

فرحتُ كثيراً عندما تزوجت ياسمين. كانت لدي عُقدة ذنب تجاه زيجتنا التافهة، والتي حاولت أن أنتقم منكِ فيها وأن أبعدكِ بها. سعدتُ أكثر حينما أنجبت لأنني كُنت أعرف أنها لطالما حلمت بالزواج وبالأمومة، خاصة وأنها كانت في منتصفِ أربعينياتها. أذكر كيف لم أقدر على انتظار رؤيتها أماً. حجزت على أقرب طائرة لمونتريال حالما أرسلت لي صورة لصغيرها جوزيف. كُنت سعيداً جداً ومأخوذاً بالموقف! حملته بيدين ترتجفان عندما زرتها في المستشفى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أحمل بها وليداً، والغريب أنني شعرتُ بالعطف والرحمةِ والحُب الصافي تجاهه وكأنه ابن لإحدى أخواتي!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كُنت سعيداً لها ولمارك، زوجها الطيب المُحب، والذي بات صديقاً لي أيضاً بعدما تزوج منها. ورغم أنني لم أتطرق مع ياسمين لما قد كان بيننا من بعدِ ما تزوجت، إلا أنني سألتها بعدما عدتُ معها إلى منزلها لأولِ مرة مع رضيعها من بعد الإنجاب، وبعدما قام مارك ليغسل أطباق العشاء: ياسمين.. ماذا يعرف مارك عنا؟!

عقدت حاجبيها باستغراب وقالت: عنا؟!

- عني أنا وأنتِ!

هزت رأسها ببساطة وقالت: يعرف إنكِ صديقي الذي تزوجته مزحة وأنك «خيي»!

قالت «خيي» بالعربية، فضحكت. ضربت ركبتي بيدها وقالت: لماذا تضحك؟! أنا فعلا أصبحت أعدك صديقي وأخي!

- ضحكتُ على نطقكِ لخيي.. تضحكينني عندما تتكلمين بالعربية!

هزت رأسها ورجعت بظهرها للخلف وقالت بالعربية وبتعبٍ شديد: منيح اللي ما نسيتا! مع الحُبل نسيت كُل شيء!

ضحكت: أعرف! ذاكرة السمكة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

- عموماً ما تعتل هم شيء. شرحتلو كُل شي وبيعرفني ويصدقني.

- شكراً ياسمين لأنك دائما ما تُسهلين الأمور عليَّ من دون أن أسألكِ ذلك. مارك جداً ولا أريد أن أكون يهمني مصدر قلق أو ضيق بالنسبةِ له.

- أتعرف يا عزيز! فعلاً أنا لا أعرف لم أحن عليك كثيراً! دائماً ما أشعر إنكِ طفل صغير رغم الشعرات البيضاء التي تملأ رأسك!

- ربما لأنك تعرفينني جيداً. أكثر بكثيرٍ مما أعرف نفسي.

قُلتها وأطرقتُ مُفكراً. الحقيقة أنني لا أعرف إن كانت ياسمين تعرفني جيداً أم تجهلني جداً لدرجة أنني لم أؤذها رغم مزاجيتي وتذبذبي في علاقتي معها المُمتدة لسنواتٍ طويلة، رغم قربي المفاجئ وابتعادي المفاجئ بدونِ اعتذار أو تبرير. كُنت أطيل الغياب فتبادرني بالسؤال، وحينما أجيء كانت تستقبلني وكأنني كُنت معها ليلة البارحة، بلا سؤال ولا ملامة!

ارتفع صوت جوزيف يبكي عن طريق جهاز مراقبة الأطفال. قامت لتطمئن عليه فلحقتها بعدما سمعتها تُنادي على مارك، وبعدما سمعت صوت الصغير يزداد اضطراباً. كان يبكي بصوت عالٍ وهي تهزه بتعب وبقلة حيلة وبانعدام خبرة. أخذته من بين يديها وجلست على

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

الأريكة الزرقاء الفاتحة المجاورة لسريره، بينما هرعت هي لتحضر قنينة الحليب التي كانت قد خزنت بها حليبها الطبيعي قبل ساعة. مدتها إليَّ لأرضعه، وضعتُها في فمه بتردد فأخذ يمصها بجوع شديد.

رفعت رأسي ونظرت إليها وابتسمنا. مسحت ياسمين بيدها على شعري وجلست بإرهاق وتعب على المقعد المجاور. كُنت أرقب جوزيف بعينيه الملونتين وشعراته الوبرية الشقراء وأنا أستمع إلى الصوت النهم الذي يصدر منه وهو يرضع بجوع شديد كقطة صغيرة، فأخذت أغني له:

«ما تبكي!

أنا بحبك! قد البحر بحبك..

قد السماء الزرقاء..

بدي منك تبقى تعمل..

بالرمل بيوت..

حلوة مثل بيروت..

حلوة مثل لبنان»

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

رفعت رأسي لها حيث تجلس، فإذا بعينيها ممتلئتين بالدمع! قالت وهي تمسح عينيها وتحرك كفيها كمروحتين لتجفف دموعها: والله انتا خيي يا حقير!

ضحكت كعادتي عندما أتأثر ولم أرد عليها. دخل مارك وبيديه منشفه يجفف بها كفيه الرطبتين. أشار برأسه إليَّ وقال ساخراً: هل أنت من أبكى زوجتي؟!

أجبته: بل الهرمونات!

ضحكنا ثلاثتنا. جلس مارك بجانب ياسمين واحتضنها، ومددتُ قدمي على مسند القدمين واحتضنت جوزيف.. أخذت أتأمل ياسمين مُبتسماً. أدهشني كم تغيرتُ وكم تغيرت! نظرتُ إلى جوزيف الصغير بين يدي فملأت روحي السكينة.

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان الضغط على شديداً هذه المرة. مضت أكثر من خمسة أشهر على وفاة والدي، وانتهت أخيراً فترة حداد والدتي عليه، فأصبح كُل شغلها الشاغل هو أن تزوجني في أقرب وقت ممكن حتى وإن لم يزل الوباء ولم تنتهِ الجائحة.

لا أعرف إن كانت قد أرادتني أن أتزوج لمُجرد الزواج، ذلك الواجب والفرض الاجتماعي الذي كان لازماً عليَّ أن أتمه لأبرهن على كمالي كرجل وعلى عفافي كإنسان، أو لأنها ظنت أن زواجي هُنا في هذا الوقت وهذه الظروف سيجز كُل آمالي بالعودة التي كانت تقض مضجعها.

حاولت أن أطمئنها بشتى وكافة الطرق. وعدتها أنني لا أُفكر بالعودةِ للغربة، ليس قريباً على أي حال، لكنها أبت إلا أن تكبلني بقيدِ الزواج الذي كانت تظن أنه الضمان الوحيد القادر على إبقائي هُنا وإلى الأبد. أرادت أن تضرب بجذوري في الأرض كيلا أقدر على أن أغادرها.

كانت تتحجج بأن الموت أقرب إلينا مما نعتقد، وبأنها تحتاج لأن تراني متزوجاً قبل أن يسبقها الموت في أي لحظة، وكأن الزواج شرط من شروط الخلود وبرهان مرورنا على هذه الحياة!

كُنت أضعف من أن أقاوم في ذلك الوقت. كُنت يائساً ومُحبطاً ومُستسلماً على غيرِ عادتي. لم أكن أملك الكثير من الآمال لأعول عليها أو لأقاوم

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

من أجلها. لم تَكُن عودتكِ واردة إلا في أحلامي التي كُنت أعرف أنها ستظل وستستمر كأضغاث أحلام، كما أنني كُنت في أضعف حالاتي تجاه أمي التي لطالما شعرتُ بالذنبِ تجاهها، خاصة وأنها قد فقدت نصف روحها بوفاة والدي قبل أشهر قليلة.

تكاتفن أخواتي مع أمي علي. تعاونّ في أن يؤثرن على قراري، فكان الضغط أكبر من أن يُحتمل، وأصبح كُل همي هو أن أختار بنفسي على الأقل، لا أن يُختار لي! قررت إن لم أكن قادراً على أن أتزوج عن حُب فسأتزوج عن اختيار على أقل تقدير.

كانت الأنشطة والورش الثقافية والاجتماعية ما تزال مُعلقة ال في البلاد بسبب الجائحة، لذا لم يَكُن من السهل عليَّ أن أقابل أحدا أو أن أتمكن من التعرف على أحد. أخذت أفتش في مجتمع العمل المحيط بي عن المرأة المُناسبة وعن العروس المُنقذة. مُعظم زميلاتي كُن يصغرنني بكثير، بغض النظر عن العوائق والاختلافات الكبيرة الأُخرى، كانت رحلة البحث مضنية ومُملة ومستعجلة بلا نتيجة.

كُنت في تلك الفترة قد قررت أن أغير من ديكورات وتصميم وتوسعة المُلحق الذي أعيش فيها في بيت أهلي، وبإعادة تأثيثه وتصميمه بما يتناسب مع ذوقي الخاص لاستعادة ذلك الإحساس المُسمى بالـ «بيت»، والذي فقدته منذ أن عُدت رغم شبه الاستقلالية التي أعيشها في مُلحقي الأقرب إلى ما يكون بالشقة المُستقلة.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

تواصلت مع إحدى شركات التصميم الداخلي والتي أثنى عليها كثيراً أحد زملاء العمل. أخذت موعداً وقابلت يومها «مَدى»، المُهندسة الداخلية التي ما إن تبادلت معها أطراف الحديث حتى أدركت أنها أفضل الخيارات التي قابلتها، الخيار الثاني من بعدكِ أنتِ، فكل الخيارات لا تأتي إلا من بعدك وإن طال الغياب واستحالت الفرص.

منذ اللقاء الأول بيني وبين مدى وببساطة شديدة أكثر بكثيرٍ مما يُفترض ومما توقعت أن تكون! وبعد حوار طويل حاولت أن أمطه قدر الاستطاعة وأن أشعبه قدر الإمكان، سألتها مُباشرة إن كانت متزوجة أو مُرتبطة. أجابتني بالنفي مُحرجة ومُندهشة في الوقت نفسه من جرأة السؤال، فطلبت منها في نهاية الحوار رقم والدتها.

أعطتني إياه بارتباك لا يُخفى! فأخبرت أمي ليلتها أن تطلبها لي في أسرع وقت مُمكن، بلا تحرٍّ ولا سؤال! فما دامت عائلتها تُناسب عائلتي اجتماعياً، فلا يوجد هناك أي داعٍ لأية أسئلة! أردت أن أطوي الصفحة وأنتهي من كُل الحكايات وأن أتخلص من ذلك العبء الثقيل الذي كان يجثم على المُعلقة صدري ويُثقل كاهلي. أردتُ أن أُريح أمي وأخواتي مني، وأن أرتاحَ أنا منكِ!

***

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لا أعرف كيف جرت وسُيرت الأمور بهذهِ السرعة وهذه السلاسة! وكأن يداً عُليا تُسيرها بسهولة وبساطة ومباشرة من دون أن يعرقلها أي شيء أو يعترضها أي شيء! ربما هي إشارة من إشارات القدر التي لطالما كُنتِ تنتظرينها وتؤمنين بها. ربما هي إشارة صريحة إلى أن هذا الخيار هو الأفضل بالنسبة لي. ربما تُخبئ لي الأيام مع مدى ما لم أتصور يوماً أن أعيشه مع امرأة لم تربطني بها علاقة حُب قبل الزواج.

عاش الكثيرون ممن حولي علاقات حب كبيرة لم يُكتب لها النجاح والاستمرار، ومن ثم تزوجوا زيجات تقليدية محضة وعاشوا في زيجاتهم بسعادة وتفاهم واستقرار لم يتوقعوه ولم يحلموا أن يعيشوه في زيجات تقليدية. فلم أظن أنا أنه يستحيل عليَّ ذلك؟! لم أستصعب ما مر به الكثيرون ووجدوا في نهايةِ المطاف أنها كانت العلاقة المُناسبة التي لطالما حلموا بها؟!

مرت الأيام سريعة ما بين الخطبة وعقد القرآن. أصبحتُ متزوجاً رسمياً وإن لم تحن ليلة الزفاف. تعرفت على مدى أكثر في هذه المدة البسيطة والقصيرة. كانت مدى في عُمركِ تقريباً، تصغرني بعشرة أعوام، لم يسبق لها الزواج، ربما لأنها كانت مُهتمة بإكمالِ تعليمها وتأسيس المكانة الوظيفية التي كانت تحلم بها. أعتقد أن هذه أسبابها!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

لم أسألها ولم تحكِ لي، لكن شخصيتها العملية فرضت عليَّ هذه الفرضية وهذا التوقع!

أنا أيضاً قدمت نفسي بهذه الصورة، وأوعزت تأخري في الزواج لهذه الأسباب. لم تسألني هي عن أي شيء يتعلق بحياتي العاطفية السابقة، وبدوري لم أسألها ولم أهتم.

كانت مدى امرأة مثقفة، جميلة، بطموحات مهنية كبيرة وبمتطلبات عاطفية قليلة، وقد كان هذا مُناسباً لي لأنني كُنت أُدرك أنني لست بقادر بعد على أن أُلبي احتياجات امرأة عاطفية ذات سقف عال من التوقعات! ليس في هذه المرحلة من حياتي وليس لامرأة لم أُحبها حتى الآن!

تُدهشني قدرة البعض على حُب زوجات لم يخترنهن، وكأن الحُب اختيار! أُفكر فيها لو قدرت على أن أفعل ذلك أيضاً! فيها لو كُنت مُباركاً ومحظوظاً إلى هذه الدرجة!

أُفكر فيها لو خيرت بالعيش مع امرأة لم أخترها وقدرت على أن أُحبها بعد الزواج، وبين امرأة عرفتها فهِمتُ بها وكرهتها بعدما تزوجتها.

ربما سأحب مدى كثيراً بعد أن نتزوج، ربما لكُنت كرهتكِ لو كُنت قدرت على أن أتزوجكِ! أحاول أن أزج بهذه الفرضية في معمعة افتراضاتي، وأن أربتُ على قلبي بهذه الفكرة والاحتمال.

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

قررت ومدى، واتفقنا على أن يكون زواجنا عائلياً ومُختصراً، لظروف وفاة والدي التي لم يمضِ عليها إلا أشهر قليلة، وللشروط الاحترازية التي فرضتها الدولة على حفلات الزفاف، ولرغبتي بعدم إقامة حفل كبير قبل أي سبب آخر.

كُنت قد اتفقت معها على أن نقيم في الشقة المُلحقة بمنزل عائلتي والتي كانت السبب الرئيسي للقائنا. طلبت منها أن تصممها كما ترى وترغب. قررت أن أتنازل عن ذوقي الخاص هذه المرة مادامت قد تنازلت عن حقها في الاستقلالية التامة وقبلت بالسكنِ معي في بيت العائلة.

كُنت أشعر وكأنني شبه حاضر في هذه المرحلة من الحياة، شيء مني كان غائبا في هذه الحكاية!

أتدرين؟!

يدهشني كيف لم تغيبي أثناء ما كُنت معي أبداً! كُنت حاضرة معي، تامة اليقظة والتركيز بوجودي دائماً!

أتساءل دوماً عمَّا كان يشعل حواسكِ معي. كيف كانت حواسكِ في أشد حالاتها انتباهاً وحساسية وحضوراً؟ كيف كُنت قادرة على أن تبقي مشدوهة ومُترقبة ومُتيقظة طوال الوقت؟ وكأنكِ كُنتِ تخشين في لا وعيكِ أن تتسرب أو تفلت منكِ لحظة من اللحظات التي كنا نعيشها معاً!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أكُنتِ تشعرين بأن لحكايتنا عُمراً قصيراً؟ أم كُنتِ تنوين وتعرفين إنكِ ستُنهينها يوماً؟! ألهذا كُنتِ مُتمسكة بكل لحظةٍ منها وكل تفصيل فيها؟!

أنا حقاً لا أفهم كيف كُنت رقيقة في الحضور! وكيف بتِّ صلبة في الغياب؟! كيف قدرتِ على أن تتلوني وأن تتشكلي وأن تتغيري؟!

أنا حقاً لا أدري كم فاتتني من لحظة معكِ! وكيف لم أشعر أن استمرارَ علاقاتنا مُجرد احتمال؟! أنها ككُل العلاقات وكل الافتراضات وكل الاحتمالات قابلة للنجاح ومُعرضة للخسارة!

يقترب عيدنا الوطني، يذكرني العيد بك مثلما كُنتِ تذكرينني دائما به!

التقيتُكِ في غربتنا بالعيدِ الوطني قبل أربعة عشر عاماً. كُنتِ ترتدين شماغاً تحيطين به رقبتكِ كشال ذلك اليوم. كُنتِ تحتفلين بعيد الوطن في مكان آخر وفي مجتمع آخر .. لا يعرف عن عيدكِ وعنكِ أي شيء!

لطالما كُنتِ وفية لكل الأشياء التي تحبينها، ولطالما كُنت مأخوذاً بهذا الوفاء الذي لا تشوبه شائبة.

كنا على مشارفِ سبتمبر. اقترحتُ على مدى أن يكون زفافنا في مطلعِ أكتوبر، لكنها أصرت على أن نقدمه أسبوعاً ليكون في الثالث والعشرين من سبتمبر متوافقاً مع العيد الوطني، اليوم الذي صادفتُكِ وعرفتكِ فيه!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

ابتسمتُ على الرغم مني. لكم هي ساخرة ومُستفزة هذه الأقدار ! أأُحبكِ في يوم وأتزوج في ذكراه بعد أربعة عشر عاماً من أُخرى؟! أي انتقام هذا؟! وأي ألم هذا الذي سأشفى منه بهذا الانتقام؟!

لا أعرف لمَ لم أقاوم اختيار مدى لهذا التاريخ؟! سألتها متوجساً فقط في الأسباب التي جعلتها تفكر فيه تحديداً!

لطالما شككت بأن العالم كُله قد عرف وقرأ تاريخي معكِ! بدونِ أن أُعلنه وبدونِ أن تُعلنيه!

كانت أسباب مدى وطنية جداً. تعظيماً لتاريخٍ يمتدُ لقرابة المائة عام. كانت تؤمن بالأرقام المميزة والتواريخ العظيمة، وقد كان تاريخاً لا يُنسى بالنسبةِ لي بكل الأحوال!

اقترب موعد زفافنا. كُنت أرقب اللون الأخضر الذي يُحيط بي من كُل مكان فأتذكركِ. أنظر للعلم الضخم الذي يرفرف بعيداً في - الدرعية - عاصمة الدولة السعودية الأولى قبل أكثر من ثلاثمائة عام بتوقيرٍ واحترام، فيدهشني كيف ترامت أطراف الرياض فجأة فأصبحت الدرعية التي كانت مدينة أُخرى جزءاً صغيراً منها! كُنت أمر من ذلك العلم كُل يوم في طريقي لعملي وأنا أتذكرك!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

كان جزء مني مُمتناً للجائحة رغم فداحة وضخامة الخسائر حتى الآن. كُنت مُمتناً لها لأنها أعادتني لأبي وإن كانت قد انتزعتهُ مني، مُمتناً لأنها أعادتني إلى الوطن، ومُمتناً له لأنه انتشلني واحتضنني رغم عصياني..

مرت الأيام بلمحةِ عين. كُنتِ تحضرين في ذاكرتي وتقتحمين اللحظة كلما اقترب موعد الزفاف. أصبح وجودكِ مُتطفلاً، لحوحاً، يُعكر عليَّ كُل الأوقات وكل اللحظات التي عليَّ حاولت أن أتقرب فيها إلى مدى أو أن أحلم فيها بمُستقبل جديد، حميم، وسعيد بعيداً عنكِ.

كل ما كُنت أحتاجه في هذه المرحلةِ من حياتي هو أن أنسى. أن أنساكِ وأنتزعكِ من الحاضر الذي لا أفهم لمَ وكيف وإلى متى ستُسيطرين عليه.

تبقى على موعدِ زفافي يومان. قررتُ أن أتشجع وأن أستبدل صورتكِ في خلفية هاتفي بصورة لفريق برشلونة. صدقيني.. لا يُضاهي حُبي لكِ حبي لأي شيء آخر! لكن لم يَكُن لدي من أحبه لدرجة أن أستبدل صورتكِ بصورته! كُنت يائساً ووحيداً إلى تلك الدرجة! لدرجةِ أن أستبدل صورة حبيبة عُمري بفريقِ كُرة قدم!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

دخلتُ على حساباتي في وسائل التواصل الاجتماعي. ألغيتُ مُتابعتكِ ومُتابعة زوجكِ في البداية، ومن ثم قررت أن ألغي كُل حساباتي كيلا أضعف وأعود لمُتابعتكِ.

أجريتُ بحثاً عن كيفية صلاة الاستخارة. اكتشفت أنني لم يسبق لي أن استخرت الله في شيء، لكنني قمتُ وتوضأت وصليت صلاة الاستخارة هذه المرة.

شعرتُ أن الله قريب جداً في تلك الليلة. صليتُ الله طالباً منه بقلب صادق أن يتمم زواجي إن كان لي خير فيه، وأن يصرفني عنه لو كان فيه شر لي، وأن يكتب لي الخير حيثُ كان وأن يرضيني به، وأن يعوضني عنكِ بأي عوض، أي عوض يغنيني ويشغلني عنكِ!

اضطجعت على سريري وأنا أُفكر لمَ لم أستخر إلا الآن؟! لَمَ قبل زواجي بيومين؟! لمَ لم أستخر قبل أن أقرر الزواج أو قبل أن أقبل به على وجه الدقة؟! أي شيء هذا الذي سيصرفني عن الزواج لو كان لي شرٌّ فيه؟!

كُنت أعرف في قرارةِ نفسي أنني بحاجةٍ لأن تعترضني يد الله، بحاجة لأن يوقفني!

كُنت بحاجة لأن يعترض أي شيء هذه الزيجة!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

هاتفتني مدى في مكتبي. لم يتبقَّ على موعدِ زفافنا إلا يوم واحد، وقد كُنت أحاول أن أعيد ترتيب جداولي قبل تسليم العمل والبدء بعدها بإجازة الزواج وشهر العسل الذي كنا سنقضيه في الرياض نظراً لإجراءات منع السفر الاحترازية.

كُنت أستمع إلى مدى وهي تخبرني كم هي مُمتنة للأقدار والظروف التي جعلت من زواجنا زواجاً عائلياً مُصغراً. كانت تتساءل ضاحكة إن كان هذا التوتر والقلق الذي تعيشه ليلة الزفاف بالرغم من اختصار زواجنا واقتصار الحضور على أطراف العائلة، فكيف لو كانت قد حققت حلمها بإقامة زفاف ضخم من ليالي ألف ليلة وليلة كما كانت تحلم ككل الفتيات!

كُنت أُفكر وأنا أسمعها وهي تضحك من فرطِ الحراسة، كيف سأتزوج هكذا؟! كيف تزوجت من ياسمين وكيف سأتزوج من مدى هكذا؟! كيف أتزوج بدونِ أن أحس بذلك الإحساس الذي يجعلني أشعر وكأن جسدي يرتفع من على سطح الأرض، وكأن الجاذبية لم تَعُد موجودة؟!

ذلك الإحساس الذي لم أشعر به يوماً في حياتي إلا حينما أحببتُكِ أنتِ وعندما قررتُ أن أتزوجكِ أنتِ!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

انتشلني رقم آخر يتصل بي من بين أفكاري، كان رقاً أرضياً لا أعرفه، وعادة لا يتصل بي أحد من أرقام أرضية إلا لعمل أو من جهة رسمية. استأذنت من مدى في أن أُنهي المكالمة لأرد على الاتصال الآخر:

أجبت: آلو!

- صباح الخير.

أجبت وقلبي يخفق: صباح النور!

- عبد العزيز؟ معك جمانة!

عقدت المفاجأة لساني! فتحت أزرار ياقة ثوبي لأتنفس! شعرتُ فجأة أني مكتوم ومُختنق بالمفاجأة والصوت غير المتوقع!

استرسلتِ: كُنت أدرس معك في فانكوفر..

صمت ولم أرد! فجاءني صوتكِ مُستنكراً: عزيز؟ ما تتذكرني؟!

شعرتُ حينها أن الجاذبية قد تلاشت وأن جسدي يرتفع عن سطح الأرض وبأن يد الله تعترضني!

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

أثير عبد الله النشمي

سبتمبر ٢٠٢٠م

حبيبتي الرياض

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مكتبة ضياء
t.me/twinkling4

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:
أشرف غالب.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد،
الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني
بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

فوضى العودة

أتخيل كيف قد يكون لقاؤنا الأول من بعدِ هذا العُمر وهذا الغياب!

إلى أي درجةٍ ستكتنفه الغرابة وإلى أي حدٍ سيحتمل قسوة الظنون وصراحة المخاوف وحدة الأسئلة؟!

إلى أي مدى قد يطول العتاب وإلى أي درجة قد تُغيرنا السنوات على بعضنا فنغدو غريبين على بعضنا، متوجسين من بعضٍ ومُختلفين عما كُنا عليه في عُمرنا معاً!

أثير عبدالله النشمي

Atheer_alnahsmi

atheer.alnashmi

t.me/twinkling4

ISBN: 978-9921-755-10-7

9 789921 755107

حكاية HEKAYA | DarHekaya | DarHekaya@gmail.com | www.DarHekaya.com